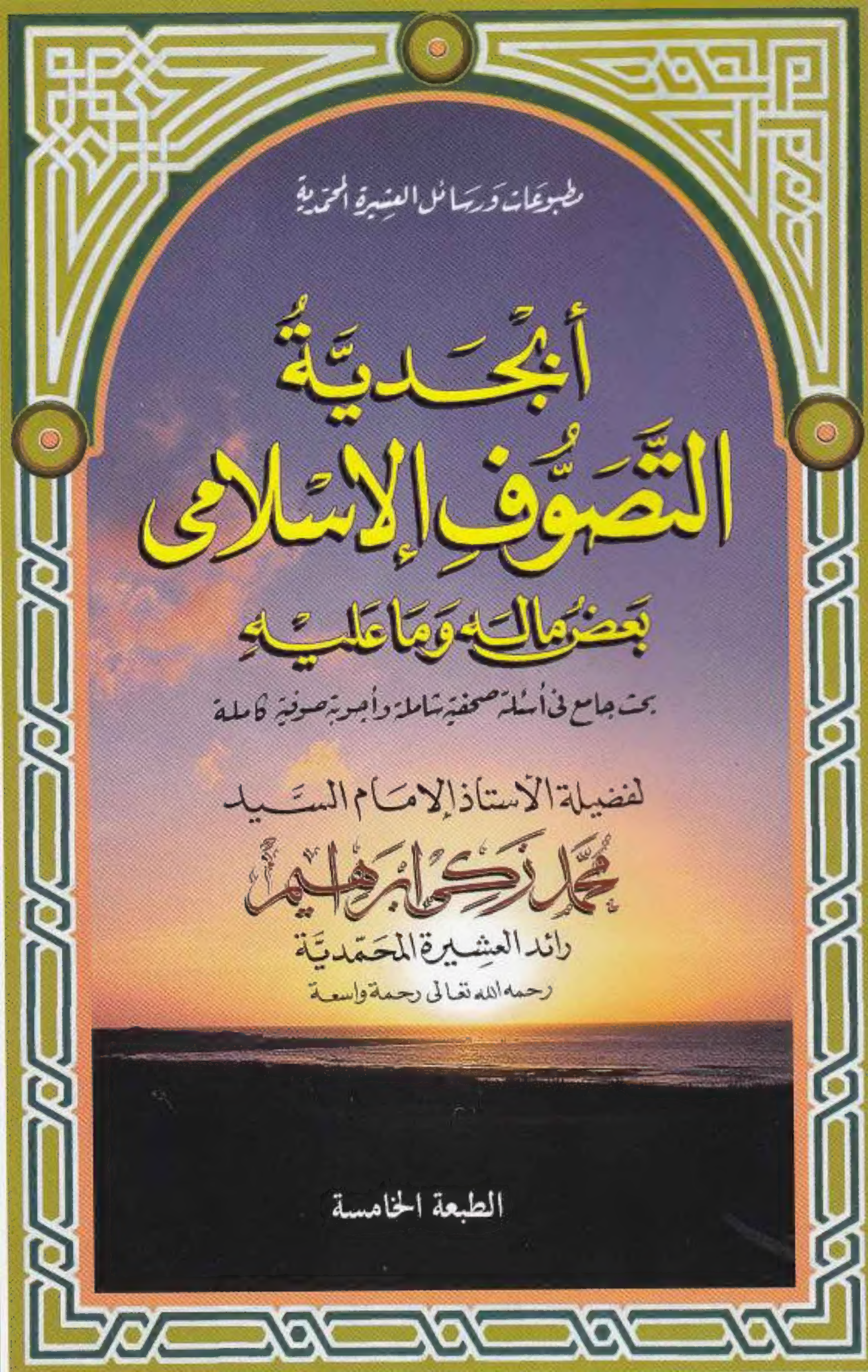

مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية
أبجدية
التصوف الإسلامى
بعض ما له وما عليه
بحث جامع فى أسئلة صحفية شاملة وأجوبة صوفية كاملة
لفضيلة الأستاذ الإمام السيد
محمد زكى إبراهيم
رائد العشيرة المحمدية
رحمه الله تعالى رحمة واسعة
الطبعة الخامسة

سلسلة منشورات ورسائل
العشيرة المحمدية
مسجد المشايخ - قايتباى - القاهرة
تليفون : ٣٤١٦٠٤٧ - ٣٤١٠٥٠٦

أبجدية التصوف الإسلامى

بعض ماله وما عليه

بحث جامع فى أسئلة صحفية شاملة وأجوبة صوفية كاملة

لفضيلة الأستاذ الإمام السيد
محمد زكى ابراهيم
رائد العشيرة المحمدية
رحمه الله تعالى رحمة واسعة

مؤسسة أحياء التراث الصوفى

راجع هذه الطبعة الأخ المفضال الأستاذ عبد الكريم عدس
بالتعاون مع عبد الرحمن حسن محمود
جزاهما الله خيراً

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف موجز بفضيلة الإمام

رائد العشيرة ، وشيخ الطريقة المحمدية ومجدد التصوف ومؤسس الصحوة الصوفية المعاصرة »

(١)

هو العالم الموسوعى ، الداعية ، القطب ، المجاهد ، الكاتب ، الخطيب، الشاعر ، المحاضر ، المعتصم بالله (السيد محمد زكى إبراهيم) وكنيته (أبو البركات) ، ولقبه (زكى الدين) ، وقد وُلد ببيت الأسرة ببولاق بمصر ، ووالده القطب الشريف الحسينى (السيد إبراهيم الخليل بن على الشاذلى) ، ووالدته الشريفة الحسينية (السيدة الزهراء فاطمة النبوية) بنت القطب الأكبر الشيخ (محمود أبو عليان الشاذلى) . وله ولدان وبنت كلهم متزوج وله أولاد .

وهو خريج الأزهر ، ويجيد عدة لغات . وكان مفتشًا للتعليم بوزارة التربية والتعليم ، ثم أستاذًا بالدراسات العليا والمعهد العالى لتدريب الأئمة والوعاظ ، ثم عميدًا لمعهد (إعداد الدعاة) قبل أن تضمه إليها وزارة الأوقاف بعد أن أنشأته العشيرة ، وتخرَّج فيه كثير من أشرف الدعاة .

وترجم لإقبال عن الفارسية ، وللشاعر الألمانى (هاينى رش هاينى)، ولغيره من شعراء أوربا ، وقد نشر أكثر ذلك بمجلة « أبولو » التى كان يشارك فى الإشراف عليها أمير الشعراء « أحمد شوقى » ، وفى غيرها من المجلات الأدبية .

* * *

(٢)

وهو رائد العشيرة المحمدية ، ومؤسسها ، ومؤسس مجلة (المسلم) المجلة الصوفية الأولى فى العالم الإسلامى ، ومؤسس معهد إعداد الدعاة - أول معهد شعبى من نوعه - ومؤسس الطريقة المحمدية الشاذلية ، ومجدد مسجد ومشهد المشايخ بقايتباى ، ومراقد مسجد أهل الله ببرقوق ، ومجدد ساحات أبى عليان بالصعيد ، ومؤسس المجمع المحمدى بمنشية ناصر والدويقة والحرفيين ، والساحة المحمدية بحميثرة ، ثم هو عضو بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واللجنة الدينية العليا بمحافظة القاهرة ، والمؤتمر العالمى للسيرة والسنة ، ومؤتمر التبليغ والدعوة العالمى ، وبعض المجامع العلمية بالبلاد العربية والإسلامية ، وله مكتبته النادرة العامرة بأمهات الكتب القيمة والنادرة القديمة والحديثة .

* * *

(٣)

وقد أهداه الرئيس جمال عبد الناصر (وشاح الرواد الأوائل ونوط التكريم) ، وأهداه الرئيس السادات (نوط الامتياز الذهبى) من الطبقة الأولى ، وأهداه الرئيس حسنى مبارك (وسام العلوم والفنون) المخصص لكبار العلماء والأدباء ، ثم أهداه (نوط الامتياز الذهبى) من الطبقة الأولى أيضا . وأهداه الرئيس اليمنى عبد الله السلال (وشاح اليمن والخنجر) ، وأهدته محافظة القاهرة ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، وبعض المؤسسات الكبرى : عدداً كبيراً من شهادات التقدير والأوسمه ، ذات القيمة الكبيرة . كما كان مؤسساً لمؤتمر الهيئات والجمعيات الدينية ، للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية ، باشتراك أخيه فى الله (شيخ الأزهر) الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ الشيخ حسنين مخلوف عميد الإفتاء ، وعضوية جمهرة رؤساء وعلماء وممثلى الجماعات الإسلامية الرسمية والشعبية بمصر الذى انعقد فى الثمانينات لثلاثة أيام ، كما أسس المؤتمر الصوفى العالمى ،ومؤتمر المرأة المسلمة الذى عقد فى أوائل الخمسينات .

* * *

(٤)

كما كان أمينًا ورائدًا دينيًا لجماعات الشبان المسلمين العالمية والمؤتمر القرآنى ، برئاسة نائب رئيس الجمهورية السيد حسين الشافعى ، واللجنة العليا للدعوة بالأزهر برئاسة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ، وكان خبيرًا باللجنتين التاريخيتين لإصلاح التصوف برئاسة السيد وزير الداخلية ثم برئاسة الشيخ الباقورى وزير الأوقاف وقتئذ (رحمه الله) . وعلى مجهود هاتين اللجنتين صدرت اللائحة الصوفية الحالية ، وقد كان له عليها عدة مآخذ لولا أنها كانت الخطوة الأولى فى سبيل إصلاح التصوف بمصر .

كما كان عضوًا إداريًا عاملاً فى أكثر من جماعة وهيئة ولجنة إسلامية واجتماعية وثقافية عامة وخاصة رسميةً وشعبية ، بمصر والخارج . منها جماعة (أبولو) للشعراء برئاسة المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء ، كما اشتغل فترة بالصحافة والنشاط النقابى للمعلمين ، كل هذا رغم امتحانه الدائم بالأمراض الشديدة والمواجع المستمرة ، وبرغم ما يبذل بكل السخاء ، وبالغ الجود ، من ماله الخاص فى سبيل الدعوة والإسلام بلا مَنٍّ ولا أذى ولا إعلان .

وله مشاركته الكبرى فى تجديد المسجد الحالى لمولانا الإمام الشاذلى وتطهير مولده السنوى تمهيدًا لما هو أفضل

* * *

(٥)

وقد شارك فى الإعداد لحرب عام ١٩٧٣م هو وتلاميذه وكبار أعضاء العشيرة والطريقة بأعمال التعبئة والتوعية والإعداد ، حتى كان يبيت الليالى ذوات العدد مع جنود الجبهة على البحر الأحمر مع أخيه فى الله زعيم السويس الشعبى الصوفى الشيخ حافظ سلامة ، وزميله فضيلة الشيخ محمد الغزالى ، وبعض العلماء . وكم تعرَّض ومن معه للأخطار الداهمة وواجه الأسر والقتل بين بورسعيد والإسماعيلية والسويس أمام الهجمات اليهودية وذلك وراثةً عن شيخه أبى الحسن الشاذلى فى موقعة المنصورة أمام الصليبيين وغيره من الصوفية السابقين .

* * *

ولا بد أن نشير هنا إلى فرع العشيرة والطريقة بالسويس الذى قام بالبطولات الفدائية وبالمشاركة الإيجابية الدائمة فى الكفاح ضد اليهود منذ حرب ١٩٤٨ حتى جاء نصر الله تحت إشراف الأخ الشيخ « المهدى عبد الوهاب » ·

ولشيخنا عشرات من مؤلفاته النادرة الكثيرة الدقيقة فى التصوف الإسلامى والدفاع العلمى عنه ، وبيان أصيله من دخيله ، ثم مؤلفاته فى بقية العلوم الإسلامية والآداب والشعر والاجتماع والمعارف العامة ، وله نشاطه الدينى بالإذاعة والتليفزيون والجرائد والمجلات بمصر وغيرها ، وله خطبه ومحاضراته ودروسه وفتاويه المسجلة على الكاسيت وغيره بالمساجد والنوادى والأحفال وغيرها ، ولا تزال : خصوصًا دروسه بمسجد مشايخنا بقايتباى ·

وهو يكافح التطرف والتشدد ، بقدر ما يكافح التخريف والتحريف والتظاهر والرياء والضعف ، داعيًا إلى الوسطية والسماحة والحب والسلام والعلم والعلاقة بالله ، والتقريب بين طوائف المسلمين على أساس الربانية القرآنية مكافحًا الجمود والجحود والتخلف والتعصب والتطرف والإرهاب والتخريب ·

* * *

(٦)

وله دعوته العلميـــة الثائرة القوية العملية إلى (الصحوة الصوفية الناهضة) وإلى تحرير التصوف وتطهيره وإدماجه فى الحياة الجادة ، على طريق الكتاب والسنة ، قولاً وعملاً ، ثم دعوته إلى (الجامعة الصوفية العالمية) كنواة للتجمع الإسلامى ، وإلى الاتحاد العام للجمعيات الإسلامية ، ودعوته إلى إنشاء (دائرة المعارف الصوفية التاريخية) وبيت الصوفية الجامع للمكتبة ، والمستشفى والفندق ، وقاعة الاحتفال ومعهد الدراسات الصوفية ، والمطبعة والمجلة والجريدة ، وكافة المرافق · والمؤتمر الصوفى العالمى الذى عقد فى دورته الأولى فى الأربعينات لثلاثة أيام · ومع كل هذا لم يقبل مشيخة الطرق الصوفية ، ولاعضوية مجلسها الأعلى إيثارًا لحريته فى دعوة الإصلاح الصوفى والمذهبى وغيره ، ووقوفًا مع رأيه الخاص فى كل ذلك ·

* * *

(٧)

وكل ذلك بالتعاون الكامل ، مع شقيقه ونائبه وأمين سره ورفيق جهاده : العارف بالله السيد محمد وهبى إبراهيم (رحمه الله تعالى رحمةً واسعة) حامل نوط الامتياز الذهبى ، ومسئول إدارة العشيرة والطريقة بجميع الأنشطة والمؤسسات المحمدية بالمدن والأقاليم ، وبمشاركة العارف بالله السيد أبي التقى أحمد خليل ﷺ» وتقبل منهم جميعًا ورحم الله أخانا السيد أبا التقى ورفع درجته عنده .

* * *

(٨)

هذا وقد قطع شيخنا مدارج السلوك الصوفى وأتم مسيرة (الأسماء السبعة) ثم (الثلاث عشرة) ثم (التسعة والتسعين) حتى انتهى إلى (الاسم المفرد والأعظم) ودخل الخلوة الصغرى والكبرى مرات ، ومارس العلوم الفلكية والروحية ، وأجرى الله على يديه الكرامات ، وتتلمذ عليه كبار القوم والسادة من الشباب والعلماء والأدباء ، وقد أسلم على يديه عدد من القساوسة والشمامسة وغيرهم ، وزارته الوفود (ولا تزال) والشخصيات الكبرى من أطراف الوطن الإسلامى . فهو عَلَم الصوفية ومفتيهم وقطب وقته ومجدِّد عصره ، لا محالة ، وقد لاقى فى سبيل دعوته ما لا يوصف من أنواع الأذى البالغ ماديًا وأدبيًا ، وهو سعيد مستمر صامد ، حتى يلقَى اللهَ مجاهدًا راضيًا مَرْضيًا إن شاء الله .

وقد ألزمته الأمراض الاعتكافَ عدة سنين ، ولكنه لم يفتر قط عن كافة أنشطة الدعوة بكل مشاقِّها وتضحياتها الكبرى بكل ما بقى له من جهد وطاقة فى الله فى مرضه الدائم الطويل منذ سنين . وكما عانَى من أعداء الصوفيه بما لم يخطر على بال ، كذلك عانى من أدعياء التصوف ، حتى رفع الأمر الى مجلس الدولة فحكم له لأول مرة فى التاريخ الصوفى الرسمى ، بالإضافة إلى ما ينظره القضاء العادى فيما بينه . وبين المتمسلفة سواء منهم الحمقى أو

المأجورين ، مما تدخل فيه الأزهر الشريف ، وبعض كبار الرجال ، والله أشد بأسًا وأشد تنكيلا .

نفعنا الله به وبعلومه وربّانيته ، ووفّقنا إلى الاقتداء به والثبات على طريقته ، وخدمة دعوته بفضله تعالى ونعمته . ونستغفر الله ونتوب إليه .

صدر عن
أمانة الدعوة بالطريقة والعشيرة المحمدية
بمسجد المشايخ بقايتباى بالقاهرة

الباب الأول

أسئلة جريدة التعاون

* * *

بسم الله وبحمده

والصلاة والسلام على من لا نبى بعده :

كانت جريدة (التعاون) قد طلبت منى الرد عن أهم ما يوجه اليوم إلى التصوف مِن شُبَه واتهامات ، وكنت قد اعتذرت ؛ لعدم جدوى البيان مع خصوم التصوف ، ولأسباب أخرى .

ثم إن بعض الأحباب عاد فرجا منى الردَّ لأسباب اقتنعتُ بها ، فكان ما يأتى . وقد نشرته (التعاون) ومجلات أخرى ، وكان مندوب التعاون هو الصحافى المعروف الأستاذ « كمال فرغلى » .

وقد سجلنا هنا الأسئلة والردود عليها

إثباتًا للحق المعتدى عليه ، وإرضاءً للحق تبارك وتعالى .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لا بد منه

الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم :

أرجو أن يكون في ذكرنا ، أن هذه الإجابات ، إنما هي إشارات إجمالية إلى أصول الأدلة ، وأننا نعلم - مقدمًا - أن أحد الفريقين لن يدع مذهبه كأثر لهذه المناقشة ، فلقد طالما تكررت هذه الملاحم من قبل ، واتخذت صورًا شتى من العنف والمهاترة ، والانتصار للمذهب على علاته ، وقلَّما كان للإنصاف العلمى نصيب فى هذه الملاحم ، بل قلما كان للإنصاف الخُلُقى ، وضبط النفس ، والاحتياط ، وعفة الكلمة ، وأدب المناظرة ، والخوف من الله أيضًا أى نصيب .

ولا أحسبنا نضيف جديدًا ، ما لم نعتصم بمعالى الأمور وندع سفسافها ، ونستنزه عن دعوى احتكار الصواب ، وافتراض الخطأ (وجوبًا) فى كل قضية تخالف مذهب المتحدث أو الكاتب ، وبخاصة فى هذه الفروع التى هى - بالطبع والشرع - محل اجتهاد ، تستوجب ماهيته الخلاف ، كاقتضاء ذاتى لهذه الماهية ، مستقطبًا أسبابه العلمية ، والشخصية ، والبيئية والاجتماعية العامة من كل باحث .

ثم يا ليتنا نتعلم أدب المناظرة الشريفة ، من قوله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مبين ﴾[1] ثم قوله : ﴿ وليتلطَّف ﴾[2] . وقوله : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[3] . . .

---

(١) سورة سبأ : الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الكهف : الآية : ١٩

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

وكلُّ ما نرجوه من إجاباتنا هذه ، هو محاولة تصحيح بعض المفاهيم ، وتوضيح بعض الدلالات،حتى يتبين عذر الاعتصام بالمذهب ، فيكون من وراء ذلك : جوٌّ صحى ، صالح للتقريب بين الآراء ، والتعاون على البر والتقوى ، ومحاولة جمع صفوف الأمة على المتفق عليه : فعلاً أو تركًا ، والنصح المهذب فيما وراء ذلك ابتغاء رضوان الله ؛ فإن القول بجمع الأمة على قول واحد فى الفروع - فوق أنه مخالف للطبع والشرع - هو مما لا يمكن تحقيقه ، لا باللسان ، ولا بالسنان ، فالوقوف عنده عبث يُضحك ويُبكى فى وقت واحد ، وبين يدينا رأى مالك مع الخليفة العباسى ، حين أراد الخليفة جمع الناس على (موطأ مالك) فأبى مالك ذلك ؛ لأنه مخالف للشرع والوضع[1] .

كما أن محاولة نقل أحكام الأصول إلى أحكام الفروع ، عبث يُبكى ويُحزن ، علميًا ، وخُلُقيًا ، فقد كان هذا - وسيبقى - من أنكد أسباب تمزيق جماعة المسلمين باسم الإسلام ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

محمد زكى ابراهيم

(١) لما حج المنصور قال لمالك : قد عزمتُ على أن آمر بكتبك هذه التى صنفتها فتُنسخ ، ثم أبعث فى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره .

فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس . فدع الناس وما اختار أهلُ كل بلد منهم لأنفسهم » ويحكى نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد ، وأنه شاور مالكاً فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، فقال : لا تفعل ؛ فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان ، وكلٌّ سنةٌ مضت » قال : وفقك الله يا أبا عبد الله .
(من شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ص ٢٩ ، ٣٠) .

السؤال الأول

(أ) ما هو المقصود بالتصوف الإسلامى ؟

(ب) وهل مُورِسَ هذا التصوف فى عهد رسول الله ﷺ ؟

(جـ) ولماذا يختلفون فى تعريف التصوف ؟

(د) ولماذا يختلفون فى تحديد مصادره ؟

* * *

الجواب :

(أ) المقصود بالتصوف الإسلامى ، يعرف من تعريفاته الكثيرة : التى تتلخص كلها فى أن :

« **التصوف** هو : « التخلِّى عَن كل دَنِى ، والتحَلى بكل سَنِىّ » سلوكًا إلى مراتب القرب والوصول ، فهو إعادة بناء الإنسان ، وربطه بمولاه فى كل فكر ، وقول ، وعمل ، ونية ، وفى كل موقع من مواقع الإنسانية فى الحياة العامة » .

ويمكن تلخيص هذا التعريف فى كلمة واحدة ، هى : (التقوى) فى أرقى مستوياتها الحسية ، والمعنوية .

فالتقوى عقيدةٌ ، وخُلُق ، فهى معاملة الله بحسن العبادة ، ومعاملة العباد بحسن الخلق ، وهذا الاعتبار هو ما نزل به الوحى على كل نبى ، وعليه تدور حقوق الإنسانية الرفيعة فى الإسلام .

وروح التقوى هو (التزكى) و ﴿ **قد أفلح من تَزَكَّى** ﴾[1] . و﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾[2] .

(ب) وبهذا المعنى تستطيع أن تستيقن بأن التصوف قد مُورِسَ فعلاً فى العهد النبوى ، والصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم .

---

(١) سورة الأعلى ، الآية : ١٤ .

(٢) سورة الشمس ، الآية : ٩ .

وقد امتاز التصوف مثلاً بالدعوة ، والجهاد ، والخلق ، والذكر ، والفكر ، والزهد فى الفضول ، وكلها من مكونات التقوى (أو التزكى) وبهذا يكون التصوف مما جاء به الوحى ، ومما نزل به القرآن ، ومما حثت عليه السنة ، فهو مقام (الإحسان) فيهـا ، كما أنه مقام التقوى فى القرآن ، والتزكى فى القرآن والإحسان فى الحديث : مقامُ الربانية الإسلامية ، يقول تعالى : ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[1] .

هذا هو التصوف الذى نعرفه،فإذا كان هناك تصوف يخالف ذلك ، فلا شأن لنا به ، ووزره على أهله ، ونحن لا نُسأل عنهم فـ « كل امرىء بما كسب رهين » والمتمصوف شيء ، والصوفى شيء آخر .

(جـ) أما الاختلاف فى تعريف التصوف ، فهو راجع إلى منازل الرجال فى معارج السلوك ؛ فكل واحد منهم ترجم إحساسه فى مقامه ، وهو لا يعارض أبداً مقام سواه ؛ فإن الحقيقة واحدة ، وهى كالبستان الجامع ، كلُّ سالكٍ وقف تحت شجرة منه فوصفها ، ولم يقل إنه ليس بالبستان شجرٌ سواها . ومهما اختلفت التعريفات ، فإنها تلتقى عند رتبة من التزكى والتقوى : أى الربانية الإسلامية ، أى (التصوف) على طريق الهجرة إلى الله ﴿ ففروا إلى الله إنى لكـم منه نذير مبين ﴾[2] . وقال : ﴿ إنى مهاجر إلى ربى ﴾[3] .

فالواقع أنها جميعًا تعريف واحد ، يُكمل بعضه بعضا .

(د) أما الاختلاف فى تحديد مصادر التصوف ، فدسيسة من دسائس أعداء الله ؛ فالتصوف كما قدمنا « ربانية الإسلام » ، فهو عبادة ، وخلق ، ودعوة ، واحتياط ، وأخذ بالعزائم ، واعتصام بالقيم الرفيعة ، **فمن ذا الذى يقول : إن هذه المعانى ليست من صميم الإسلام ؟**

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦ .

إنها مغالطات ، أو أغاليط ، نظروا فيها إلى هذا الركام للدخول على التصوف من المذاهب الشاذة ، أو الضالة ، ولم ينظروا إلى حقيقة التصوف •

والحكم على الشيء بالمدخول عليه : غلطٌ ، أو مغالطة •

والحكم على المجموع بتصرف أفراد انتسبوا إليه صدقًا أو كذبًا : ظلم مبين •

وهل من المعقول أن يترك المسلمون إسلامهم مثلاً لشذوذ طائفة منهم تشرب الخمر ، أو تمارس الزنا ، أو تحلّل ما حرّم الله ؟

وهل عملُ هؤلاء يكون دليلا على أن الإسلام ليس من عند الله ؟! ••• شيئًا من التدبر أيها الناس !!!

* * *

السؤال الثانى

(أ) من هو الصوفى ؟

(ب) وبماذا يمتاز عن عامة المسلمين ؟

(جـ) وهل هناك فرق بينه وبين التقى ، أو المؤمن ، أو المسلم ، أو الصدّيق ؟

(د) وإذا لم يكن هناك فرق ، فلماذا الإصرار على استخدام الاصطلاح ؟

الجواب :

(أ) تستطيع أن تعرّف الصوفى الحق ، بأنه المسلم النموذجى ، فقد أجمع كافة أئمة التصوف على أن التصوف هو الكتاب والسنة ، فى نقاء وسماحة واحتياط ، وشرَطه أئمة التصوف فى مريديهم أخذًا من قوله تعالى : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[1] كما قدَّمنا ·

والعلم هنا هو أولاً : علم الدين بدعامتيه « الكتاب والسنة » ، ثم هما بدورهما منبع كل علم إنسانى نافع ، على مستوى كافة الحضارات ، وتقدم البشرية ، ومقتضى تطور الحياة ·

فالتصوف إذن هو : ربانية الإسلام الجامعة للدين والدنيا[2] ·

ومن هنا جاء قول أئمة التصوف ، وفى مقدمتهم (الجنيد) : « من

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ ·

(٢) قال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى رحمه الله تعالى : « إن الصوفى من يضع الأشياء فى مواضعها ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلقَ مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويَستر ما ينبغى أن يُستر ، ويُظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور من مواضعها بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص » ·

[راجع الخطط التوفيقية لـ « على باشا مبارك رحمه الله تعالى جـ١ ص ٩٠ طبع المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٥هـ] ·

لم يَحصل علومَ القرآن والحديث ، فليس بصوفى » ، وأجمع على ذلك كل أئمة التصوف ، من قبل ومن بعد ، وتستطيع مراجعة نصوص أقوالهم عند القشيرى ، والشعرانى ، ومَنْ بينهما ، ومن بعدهما .

(ب) **أما الامتياز عن عامة المسلمين** : فالقاعدة الإسلامية هنا هى العمل ؛ فإذا عمل الصوفى بمقتضى ما يتعين عليه كقدوة وداعية ، امتاز بمقدار جهده ، شأن كل متخصص ، وإلاَّ فهو دون كل الناس ، إذا انحرف أو شذ ، بل إن تجاوز .

فالصوفية يجعلون خلاف الأوْلى فى مرتبة الحرام اتقاءً للشبهات ، واستبراءً للعِرْضِ والدين[1] ، وهم يعرفون كيفَ أن السلف كانوا يتركون تسعة أعشارَ الحلال : خوفَ الوقوع فى الحرام[2] ، فهم يؤمنون بهذا ، ويحاولون العمل به .

والله تعالى يقول : ﴿ ولِكُلٍّ درجات مما عملوا ﴾[3] فالعمل هو أساس الامتياز .

(جـ) **أما مسألة الفرق بين الصوفى ، والمسلم ، والمؤمن ، والتقى** : فإن الإسلام شرع لنا تعريف الناس بخصائصهم ، وذِكرهم بما يميزهم عن غيرهم ، وقد ذكر الله المهاجرين والأنصار بخصيصتهم : تعريفًا لهم ، وهم مسلمون مؤمنون أتقياء ، وذكر رسول الله ﷺ بلالاً الحبشى ، وصهيبًا الرومىّ ، وسلمان الفارسى بما يميزهم من الألقاب ، وهم مسلمون مؤمنون أتقياء .

---

(١) ومن نصوص الحديث – كما فى الفتح الكبير ـ قوله ﷺ :

« الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل مَلك حمًى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

{ رواه الأربعة ، والبخارى ومسلم }

(٢) هو من كلام سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ١٩ .

وذكر القرآنُ من المسلمين أصنافًا : الخاشعين ، والقانتين، والتائبين ، والمتصدقين ، والعابدين ، والحامدين ، والسائحين وغيرهم ، وكلهم من أهل « لا إله إلاّ الله » .

فهي إذن ، فذكر إنسانٍ بخصيصة عُرف بها عند الناس ، سنةٌ قرآنية ونبوية ، وما دامت هذهِ الطائفة ، قد عُرفتِ باسم الصوفية لسبب أو لآخر ، فليس بدعًا أن تُدعى بهذا الاسم .

ثم لماذا كل هذه الزوبعة هنا، ولا تكون زوبعة حين يقال (سلفية) ؟! أو « أزهرية » ، أو « وهابية » ، أو « شافعية » ، أو « مالكية » ، أو « حنبلية » !؟ وهل كان فيما مضى (جمعية كذا ، أو جماعة كذا) ؟

أرأيتَ أن الأمر كان أهون من أن يكون سؤالا ، لولا المذهبية المدمرة ، والتعصب الموبق !؟

* * *

السؤال الثالث

ما رأيكم فيما يوجه للتصوف من اتهام بأنه يعود في أصوله الأولى إلى البوذية ؟ والمجوسية ؟ والرهبانية ... الخ ؟

الجواب :

قدمتُ أن التصوف الإسلامى ، هو الربانية ، فهو : إيمان وعمل ، وعبادة ، ودعوة ، وأخلاق ، وبر مطلق . وهو إرادة وجه الله فى كل قول أو عمل ، أو نية ، أو فكر ، دنيوى أو أخروى ، وهو التسامى بالبشرية إلى مستوى الإنسانية الرفيعة ، فهو وحى من الوحى ، وهو الدين كل الدين ؛ لأنه بهذا الوصف (طلب الكمال) ، وطلب الكمال فرض عين ، وهو علاج لأمراض النفوس ، وما من إنسان إلا وهو مبتلى بجانب - قلّ أو كثر- من النقص الذى نسميه : مرض النفس ، أو الخلُق ، وإنما جاءت رسالات السماء كلها لعلاج هذه الأمراض النفسية والخلقية أول ما تعالج فى بنى آدم .

ولما كان التصوف قد تخصص فى هذا الجانب ، كان طلبهُ فرضًا شرعيًا ، وعقليًا ، وإنسانيًا ، واجتماعيًا ، حتى يوجد الإنسان السوىّ الذى به تتسامى الحياة ، وتتحقق خلافة الله على أرضه ، وينتشر الحب والسماحة بين الناس ، وتأخذ الحضارة والتقدمية روحهما الإيمانى المحقِّق لمراد الله .

وأدلة ذلك جميعًا مما لا يغيب عن صغار طلبة العلم ، ومما تزخر به علوم الكتاب والسنة .

ولا أعرف أن الكتاب والسنة نقلا عن المجوسية ، والبوذية والرهبانية شيئًا أبدا ، وإنما هو الغل للمورِّث للتهم الكواذب ، وتضليل خلق الله .

أما إذا كان المراد بالتصوف فى السؤال ، هو هذه الفلسفات الأجنبية عن العقيدة والشريعة ، فهذا باب آخر ، لا علاقة له بتصوف أهل القبلة ، والاحتجاج بهؤلاء علينا فيه تلبيسُ الحق بالباطل ، ثم إن أخذ البرىء بذنب المجرم : فعلة دنيئة .

على أن الذين اشتهروا بهذا الجانب الفلسفى ، ممن يُنسَبون إلى التصوُف ، عدد محدود ، قد لا يجاوز العشرة ، وسواء قبلت فلسفتهم التأويلَ والتوجيه - ولو من وجه ضعيف - أو لم تقبل ، فهؤلاء ، قد انتهى أمرهم نهائيًا ، وليس لفلسفتهم اليوم معتقد ، ولا دارس . وقد أصبحت كتبهم بما فيها من الأفكار أشبه بنواويس الموتى : تُعْرَض - إذا عُرِضَت - للزينة ، أو التاريخ والعبرة ، فليس بين صوفية عصرنا من يرى رأيهم ، أو يذهب مذهبهم ، سواء على ظاهره ، أو مع تأويله .

وأين فِكْر الجماهير من العمال والفلاحين ، وأنصاف المتعلمين ، أو حتى كبار المثقفين ، من كتب هؤلاء وألغازهم وأحاجيهم ؟!

هذا إذا أمكن الحصول على الكتب وعلى الوقت ، وليس الأمر كذلك ، ولا شك أن الوقوف عند هذا الجانب فى هذا العصر : نوع من البحث الأثرى ، عن الحفريات المجهولة ، فى سراديب الرموس والأجداث : عصبيةً وحمية .

والغاضبون على التصوف جميعا يحتجّون بهؤلاء ، وقد انتهى أمر هؤلاء ، فقد كانت مذاهبهم شخصية ، لا تجد طريقها إلى الجماهير ، لحاجتها إلى استعدادات وقابليات ومدارك ، ومنطق لا يوافق لدى الكافة ومؤاخذةُ الخلف بفعل السلف - لو سلّمنا جدلاً بأنهم سلف - أمر بعيد عن العلم والعدل .

والحكم على الكل بذنب البعض - لو سلّمنا بهذه البعضية - أمر بعيد عن العلم والعدل .

ولو أن إخواننا (خصوم التصوف) . نظروا إلى الواقع الفعلى . فكافحوا معنا منكرات العصر ومبتدعاته ، من نحو : الطبل ، والزمر ، والرقص ، وتحريف أسماء الله ، وغير ذلك من مناكر الموالد ، والتجمعات العامة ، وأخذوا طريق التعاون بالحسنى ، والدعوة بالحكمة ، لكان هذا أدنى إلى الصواب وأهدَى سبيلاً ، عند الله والناس .

أما حملتهم على هؤلاء الموتى ، ممن جنحوا إلى الفلسفة ، فاستئساد على الرمم ، وصيال فى غير مجال ، ومبارزة مع الهواء

انطلق ؛ فهؤلاء الموتى ، ما يملكون الدفع عن أنفسهم ، وليس من ورائهم وارث يدافع عنهم ، إلا - إذا وُجد - لمجرد التصويب وإحسان الظن بأهل القبلة ، أو هو لمجرد الثقافة والتاريخ .

وهنا أقرر بملء الثقة واليقين ، أنّ كل ما جاء منسوبًا إلى التصوف مما يخالف الكتاب والسنة ، مهما كان مصدره ، فليس - فيما نرى - من ثمرة الإسلام بوصفه مقام (الإحسان) الذى سجله الحديث النبوى المشهور ، كما قدّمنا ، وهو فى تساميه أبعد من لهو الفلسفة وعبثها ، وإن تأولت .



السؤال الرابع

ثابت أن المسلمين لم يعرفوا التصوف ، إلا بعد ثلاثة قرون من انتشار الإسلام .

(أ) فهل يحتاج الإسلام إلى التصوف ؟

(ب) هل التصوف يضيف جديداً إلى الإسلام ؟

(جـ) وما هو الفرق بين الزهد الإسلامي والتصوف ؟

الجواب :

من الذى قال بأن المسلمين لم يعرفوا التصوف إلا بعد القرون الثلاثة الأولى ؟

هذه مجازفة : ليست بعلمية ، ولا تاريخية ، وليس لها سند ، فإذا كان المراد بأنهم لم يعرفوا لفظ التصوف إلا بعد القرون الثلاثة ، فليس هذا بصحيح أيضا[1] ، فقد أثبت مؤرخو اللغة وغيرهم أن هذا اللفظ كان

---

(١) هذا الذى قالوه : إنما هو من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ قال فى كتابه «الصوفية والفقراء» :

« الحمد لله ، أما لفظ الصوفية ، فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك .

وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبى سليمان الداراني ، وغيرهما .

وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى

وتنازعوا فى المعنى الذى أضيف إليه الصوفى ، فإنه من أسماء النَّسَب كالقرشى ، والمدنى ، وأمثال ذلك ، فقيل : إنه نسبة إلى أهل الصُّفَّة ، وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفِّى .

وقيل : إنه نسبة إلى الصف المقدَّم بين يدى الله ، وهو أيضا غلط ؛ فإنه لو كان كذلك لقيل : صَفِّىٌّ

وقيل : نسبة إلى صوفة بن أُدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسّاك » إلى آخر ما قال . =

عندما اشتهروا بالخشونة والرجولة ، ولبس الصوف، والاستعداد للجهاد ، فإنَّ تصوف المسلمين . دعوة إلى القوة ، والحرية ، والمساواة، والتكافل ، والإخاء ، والتوحيد ، ومعالى الأمور ، لبناء شخصية المسلم المتكامل ، وكان عهد التدوين قد بدأ بمن كتب الحديث فى عهد رسول الله ﷺ ، وظل ينمو حتى ازدهر فى أواخر القرن الأول ، وأوائل الثانى ، بتحرير الحديث ، والفقه ، والتفسير ، واللغة ، وما إلى ذلك[1] .

أما إذا كان المراد بأن مادة التصوف وحقيقته وأصوله وموضوعه لم تُعرف إلا بعد هذه المدة ، فالخطأ هنا يستحيل إلى خطيئة ؛ فمادة التصوف من حيث العبادة ، والخلق - على أوسع معانى العبادة والخلق - موجودة مشهودة فى الكتاب والسنة ، شأن بقية مواد علوم الدين ، فإذا لم يكن لفظ (التصوف) موجوداً فى هذا العهد ، فقد كانت العبادات والأخلاق ، وتربية النفس ، ووسائل العلاقة بالله ، والارتفاع بإنسانية الإنسان ، كل هذه مسجلة فى دين الله ، وهى التصوف (سماه الناس كذلك) فالاسم حادث ، والمادة قديمة بقدم الكتاب والسنة ، شأن بقية علوم الدين سواء بسواء .

ولم يكن هذا بدعًا ؛ فلم يكن فى هذا العهد علم باسم (الفقه) ولا باسم (الأصول) ولا باسم (مصطلح الحديث) ، ولا غير ذلك من علوم الدين ، ولكن المادة كانت موجودة بين دفتى الكتاب والسنة . فلما دُوِّنت العلوم ، ورُسمت القواعد والمصطلحات ، أُطلقت الأسماء حسبما رجحته الظروف الواقعية آنذاك .

وقال أيضا بعد كلام :

« . . . والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ؛ ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين . . . » إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى ، فراجعه هناك .

(١) راجع مقالنا عن الحديث النبوى فى مجلة المسلم (عددى شعبان ورمضان ، سنة ١٣٩٨ هجرية وما بعدها .

وإذن ، فلماذا ننكر تسمية التصوف ، ولا ننكر تسمية بقية علوم الدين ، والشأن واحد !؟

ثم لماذا ننكر تسمية (التصوف) ولا ننكر تسمية (التسلُّف) ؟! .

مزيد بيان عن كلمة التصوف :

فى « لسان العرب » لابن منظور يقول : « الصوف : للضأن ، والصوفة أخص ... ثم قال : والصوفة : كل من ولى شيئا من عمل البيت الحرام وهم الصوفان ... وصوفة : أبو حىٍّ من مضر ، كانوا يخدمون الكعبة فى الجاهلية ، وهى أعظم ما يولى يومئذ » ... ثم قال : " وصوفة حى من تميم كانوا يجيزون الحاج فى الجاهلية من مِنًى فيكونون أول من يدفع . يقال فى الحج : أجيزى صوفة ... » .

وفى هذا المعنى يقول ابن الجوزى : أنبأنا محمد بن ناصر ، عن أبى إسحق ابراهيم بن سعد الحبال ، قال : قال أبو محمد بن سعيد الحافظ ، سألت وليد بن القاسم : إلى أى شىء ينسب الصوفى ؟ فقال : كان قوم على دين إبراهيم فى الجاهلية يقال لهم : صوفة ، انقطعوا إلى الله عز وجل ، وقطنوا الكعبة ، فمَن شبَّه بهم فهم الصوفية .

ثم قال : فهؤلاء المعروفون بصوفة ، ولد الغوث بن مر ، بن أخى تميم

وفى المعجم الوسيط : « صَوَّفَ فلانًا : جعله من الصوفية ، و« تصوف فلان » صار من الصوفية . « والتصوُّف » طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلِّى بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو الروح . « وعلم التصوف » مجموعة المبادىء التى يعتقدها المتصوفة ، والآداب التى يتأدبون بها فى مجتمعاتهم وخلواتهم . و « الصوفى » من يتبع طريقة التصوف» .

وهكذا يتأكد : أن كلمة التصوف عربية قديمة ، فى لغة العرب ، فمن أرجعها إلى (سوفيا) اليونانية ، فقد جهل وانحرف ، وقلد العميان ، ومن ادَّعى أنها بدعة محدَثة ، كان أشد جهلاً وانحرافا ؛ فالتصوف أخلاق ، وعبادة ، ودعوة ، وجهاد ، وسلوك ، فهو وحى من الوحى ، ودين من الدين .

إن كلمة صوفى بعيدة كل البعد - من حيث المعنى والمبنى - عن التأثر باليونان ؛ فقد عرفت واستعملت قبل نهاية القرن الثانى الهجرى ، حين أطلقت على أبى هاشم الكوفى (المتوفى سنة ١٥٠هـ) ، وإن هذا النوع من التصوف وليد لحركة الإسلام ذاته ، وإن العرب استمدوا أول علمهم بفلسفة أرسطوطاليس ، من شراح الأفلاطونية الحديثة ، وليس كتاب « أثولوجيا أرسطوطاليس » الذى نُقل إلى العربية حوالى ٨٤٠م إلا ملخصًا لمذهب الأفلاطونية الحديثة .

ويؤيد هذا الاتجاه المحقق من واقع التاريخ « عباس محمود العقاد » فى كتابه « الفلسفة القرآنية » حيث يقول : « لكن التصوف فى الحقيقة غير دخيل فى العقيدة الإسلامية ؛ لأنه - كما قلنا فى كتابنا - « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » : مبثوث فى آيات القرآن الكريم ، مستكن بأصوله فى عقائده الصريحة . فالمسلم يقرأ فى كتابه أن : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[1] فيقرأ خلاصة العلم الذى يعلمه دارس الحكمة الإلهية ، ويقرأ فى كتابه ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾[2] فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون بأن ملابسة العالم تكدِّر سعادةَ الروح ، وأن الفرار منه ، أو الفرار إلى الله : هو باب النجاة ... فالمسلم : الذى يقرأ هذه الآيات - وهو مطبوع على التصوف والبحث عن خفايا الآثار ودقائق الحكمة .

(ب) أما : **هل الإسلام يحتاج إلى التصوف ؟** فإذا كان الشىء يحتاج إلى نفسه ، جاز أن يقال : إن الإسلام يحتاج إلى التصوف .

الإسلام انقياد ظاهرى، لا يتم إلا بالانقياد الباطنى، وإلاّ كان نفاقا .

والانقياد الباطنى هو : الإيمان بوصفه عملا من أعمال القلب ، التى نسميها « التصوف » ، فليس التصوف شيئا غير الإسلام ، حتى يقال : إنه يحتاج إليه ، أو يستغنى عنه ، إنما التصوف هو ذروة الدين كله ، مقام « الإحسان » : التقوى ، والتزكيَة ، والربانية ، كما قدَّمنا ، فهو الغاية والثمرة التى لا تتاح إلاّ لسالك مُريد موفَّق ذَوّاق .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١ .   (٢) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠ .

وهكذا نجد : أن السؤال الذى يقول : هل التصوف يضيف جديداً إلى الإسلام سؤال غير وارد ، والإجابة عليه واضحة فى الرد على الشطر السابق ·

أين هذا السؤال من قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1].

إن التصوف الحق هو : الإسلام فى أعلى مستوياته ·

ومن أعجب العجب من بعضهم أن يكتب أنه يقبل أوصاف الشكر ، والصبر ، والورع ، والزهد ، والذكر ، والفكر ، من كتب المتمسلفة ، ولا يقبلها من كتب المتصوفة ، تعصبا وغلا للذين آمنوا ·

أما الفرق بينه وبين الزهد الإسلامى : فإن الصوفى أكبر من زاهد ؛ لأن الزاهد إنما يزهد فى الدنيا ، وهى لا شىء ، فالزهد فى الدنيا زهد فى لا شىء ، والزاهد فى (لا شىء) غافل أو جاهل ، لكن زهد الصوفى منصبٌ على كل ما يُبعده عن الله ، على أىّ وضع يكون ، أما كل ما يُذكره بالله (ولو المال) فليس هو بزاهد فيه ·

دخل صوفى على أحد الخلفاء ، فحدَّثه ، فأجازه الخليفة بما لم يكافىء بمثله أحدًا قبله · فاعتذر الصوفى عن قبول عطية الخليفة ، فاندهش الخليفة قائلا له : ما أزهدك !! قال الصوفى : بل أنت أزهد منى يا أمير المؤمنين ·

قال : كيف ؟

قال : لأننى أزهد فى الدنيا ، وهى لا شىء ، وأنت تزهد فى الآخرة ، وهى كل شىء[2] ·

الزهد عند الصوفية : أن تكون الدنيا فى يده ، لا فى قلبه ؛ لأن الزاهد (غير الصوفى) تاجر ، يحرم نفسه من متع الدنيا ، ليعوِّضها أضعافا فى الآخرة ، ولا كذلك الصوفى الذى لا يحرم نفسه متعة أحلها الله ، إلا إذا حجبته عن الله ·

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ · (٢) وهو نوع من التبكيت الواضح

وهذا أبو الحسن الشاذلى ﷺ ، كان صاحب تجارات ومزارع ، وهذا شمس الدين الدمياطى ، كان تاجراً من أثرى علماء الصوفية ، وهو الذى بنى برج دمياط من ماله الخاص فى عهد السلطان الغورى ، وهذا الليث بن سعد ، فقيه مصر ، وإمام زهادها ، كان أثرى أهل عصره . ولم تمنع هؤلاء أموالهم أن يكونوا أزهد الناس فى الدنيا إذا شغلتهم عن الله . ولكنها لم تشغلهم بعد ، بل كانت طريقهم إليه عز وجل !!

وهكذا يتضح ان سحق الشخصية بالزهد المادى ، والتبتل البشرى مما لا تعرفه قوانين التصوف الإسلامى .

وقد كان من أعيان الزاهدين من الصحابة : بلال ، وسلمان ، وأبو ذر ، وتميم الدارى ، أول من جلس فى مسجد رسول الله ﷺ أيام عمر يذكّر الناس بالله فى يوم الجمعة

فإنما الزهد فى حَدِّه المحدود ، مما جاء عن كثير من الصحابة والتابعين وتابعيهم كما أسلفنا .

وفى صدر هؤلاء جميعًا زُهْدُ (العمرين) ابن الخطاب ، وابن عبد العزيز بعد سيدنا رسول الله ﷺ ؛ فقد كانت الدنيا فى أيديهم ، ولم تكن فى قلوبهم ، فاستغنوا برب الدنيا عن الدنيا وما فيها ومن فيها .

إن الذى يملك ، هو الذى يَزْهَدُ ، أما الذى لا يملك ، ففى أى شىء يزهد ؟!

* * *

السؤال الخامس

بم تعلل فضيلتكم كون شيوخ التصوف من الفرس ، وأحفاد المجوس ، فى العصر الإسلامى ؟

وكيف تعلل ازدهار التصوف فى القرن السابع ، وما بعده بين العرب ، والمنتسبين إلى رسول الله ﷺ ؟

الجواب :

ليتك يا ولدى لم توجه إلىَّ هذا السؤال العنصرى ، الذى لا يرضاه الله ولا رسوله ، أو لم تقرأ قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[2] وقوله ﷺ : « لا فضل لأبيض على أحمر ، ولا لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى »[3] وقوله ﷺ : « إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية ، وفخرها بالآباء ؛ مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم لآدم ، وآدم من تراب »[4] وقوله ﷺ ، وقد تمعَّر وجهه غضبًا : « ليدعن أقوامٌ فخرَهم بأقوام إنما هم حطب من حطب جهنم ، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن »[5].

ألم يأتك أن سيدنا رسول الله ﷺ ألحق به سيدنا سلمان الفارسى ، فقال : « سلمان مِنّا أهل البيت » ، ألم يرسل الله رسوله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ؟!

إنها حَمِيَّةُ الجاهلية ، يرددها بغاوات البشر ، بلا تدبر ، ولا بينة ،

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ . (٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

(٣) وفى رواية ذكرها ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ : « يا أيها الناس ، وإن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برتقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هين على الله » إلى آخر الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم .

(٤ ، ٥) ومن نصوصه : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جَهَنَّم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخراء بأنفه . إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ؛ إنما هو مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خُلق من تراب » رواه الترمذى .

وهل جاء الإسلام للعرب وحدهم ، فاغتصبه منهم غيرهم ، فأصبحوا منبوذين ؟!

لِمَ هذه الشعوبية ، والعنصرية الكريهة ، التى ينكرها الإسلام ، وتنكرها الإنسانية الشريفة ؟!

أليس الإمام البخارى ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، والطبرانى ، والبيهقى ، والأكثرية الغالبة من رجال الحديث ، كلهم من غير العرب ، وكذلك طائفة من أكبر المفسرين ، كالزمخشرى ، والنيسابورى ، وطائفة من أكبر علماء البلاغة ، كالجرجانى ، والتفتازانى !؟

من هو طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، هذان المَوليَّان القائدان الفاتحان ، اللذان أسسا للإسلام مجداً تاريخيا ، لا يمحوه الزمانَ ؟

من هو أبو حنيفة النعمان ؟ أليس كان من الموالى ، ولولاه ما كان لبنى تيم الله ذكر ولا فخر[1] .

يا ولدى : إمامُ مصر الليثُ بن سعد ، أصله من (أصبهان) ، إمام أهل السنة ، أحمد بن حنبل ، أصله من (مَرْو) ، والإمام المفسر الطبرى ، أصله من (طبرستان) ، والشعبىّ علاّمة التابعين وإمامهم ، كانت أمه من (جلولاء) ، والحسن البصرى ، الكوكب الفرد ، كان أبوه من (مَيسانَ) .

وهذا علاّمة اللغة سيبويه ، فارسىَ الأصل ، والإمام الكسائى ، فخر اللغة العربية ، أصله من فارس ، وتلميذه الإمامُ الفرّاء ، من الديلم ، ثم إن ابن مسكويه ، وابن سينا ، والفارابى ، كانوا فُرسًا أعجميين .

اسمعْ يا ولدى . فقيه مكة ، عطاء بن رباح ، وفقيه اليمن طاووس ابن كيسان ، وفقيه اليمامة : يحى بن أبى كثير ، وفقيه الشام : مكحول ، وفقيه الجزيرة : ميمون بن مهران ، وفقيه خراسان : الضحاك بن مزاحم ، وفقيها البصرة والكوفة : إبراهيم النخعى وابن سيرين ، كل أولئك ليسوا من العرب أصلا ، ولكنهم برّزوا فى جوانب العلم والفكر والمعرفة والدين ؛ كانوا الأئمة بكل ما فى اللفظ من معنى يتجدد ولا يفنى .

إنما يتفاضل الناس بالأحلام[2] ، لا بالأرحام ، والناس عند الله

---

(١) أبو حنيفه من الأفغان ، قالوا من كابل . (٢) الأحلام : العقول

سواسية كأسنان المشط ، والله يقول : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾[1] .
ولقد أمَّرَ رسولُ الله ﷺ أسامة بن زيد (مولاه) على جيش كان فيه أبو بكر وعمر . وعندما أراد عمر أن يستخلف قال : « لو كان سالمُ مولى حذيفة حيًا لولَّيته !! » .

تأمل هذا الموقف الكبير الخطير .

يا ولدى ، ها هم أهل العلم : لا يكادون يذكرون ابنَ عمر ، الا ذكروا معه مولاه نافعًا ، ولا يكاد يُذكر أنس بن مالك ، إلا ومعه مولاه ابن سيرين . ولا يكاد يُذكر ابن عباس، إلا ومعه مولاه عكرمة . ولا يكاد يذكرأبو هريرة إلا ومعه مولاه ابن هرمز . . وما أكثر هذه الأمثلة فى الإسلام .

لقد أطلتُ عليك - عامدًا فى هذا المجال - يا ولدى ؛ فإن هذه الشعوبية هى التى كانت مسمار النعش فى وحدة الإسلام ، والتى انتهت بما يسمى زورًا بـ « النهضة العربية » وهى التى قصمت ظهر الخلافة ، وشتتت العرب أوزاعًا وشيعًا ودويلات هزيلة متناحرة باسم العروبة ، والقومية ، التى تُستخدم الآن بلا وعى ولا تدبر .

ولنرجع إلى سؤالك فى تعليل كون بعض شيوخ الصوفية الأوائل من الفرس ؛ فهؤلاء الناس اجتهدوا فى هذا الجانب ، كما اجتهد غيرهم ممن ذكرنا أسماءهم ، فاستحقوا التقديم والإمامة كمسلمين ، فإذا قيل : إنهم فعلوا ذلك ليحطموا الإسلام من الداخل ، فهذه قضية ، إذا فرضنا نهوض دليلها فى واحد ، فلن ينهض هذا الدليل فى كل واحد . وفى كل طائفة طيب وخبيث ، والحلال بيِّن والحرام بيِّن ، ولو طبقنا قاعدة سوء الظن بالفرس ، أو بغير العرب عموما، لأذهبنا ثلثى علوم الإسلام ، ولكان أول ما ننبذه كتاب البخارى ، ومَن والاه ، فهل هذا منطق يقول به إنسان سوى أو قاض منصف ؟ (الا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم[2] . . . !؟؟) أوَلا يذكرون قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟! ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٣٧ . (٢) سورة المطففين : الآية : ٤ ، ٥ .
(٣) سورة : صَ ، الآية : ٦٢ .

إن من أحفاد المجوس : من خدم الإسلام أصدق الخدمات فى الثقافات والعلوم ، والفتوحات والفنون ... وراجع إن شئت من حضرنا ذكرهم وأسلفناه ، ومن ورائهم صف شريف طويل معروف ، لم نُشِر إليه ، وهؤلاء شأنهم - بالضبط شأن كبار الصحابة (وقد كانوا - أى الصحابة - من المشركين) .

أما تعليل ازدهار التصوف فى القرن السابع ،وما بعده بين العرب ، والمنسوبين بحق أو بباطل إلى رسول الله ﷺ ، فإن هذا السؤال يحتاج إلى تكملة : هى أن هذا الازدهار فى هذا القرن وما قبله ، كان بين العرب وغيرهم ، وكان هذا نتيجة لطبيعة الأشياء ؛ فإن تطور الدعوة الصوفية وامتدادها ، كان قد أهّل الكثيرين للزعامة والاجتهاد فى هذا الوقت ، كثمرة للتفاعل ، والتطور فيما سبق هذا الزمان .

فمثلا : نجد من صوفية القرن السابع أمثال أبى الحسن الشاذلى ، وأحمد البدوى . وابن دقيق العيد ، ومجد الدين القشيرى ، وزكى الدين المنذرى . ونجد من قبلهم فى القرن السادس أمثال أحمد الرفاعى ، وأبى مدين . ونجد فى القرن الخامس ، أمثال الغزالى ، وعبد القادر الجيلانى . وفى الثالث والرابع أمثال : الجنيد ، والشبلى ، ومن قبلهم ذو النون المصرى ، وأبو يزيد . ومن قبلهم الحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، ومالك بن دينار ، وإبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وشقيق البلخى ، وحاتم الأصم - بكل ما فى تواريخهم من صدق وكذب ، وأصيل ودخيل .

أضف إلى ذلك موضوع التطور والامتداد ، وقابلية البيئة ، بما كان من الحروب الصليبية والتترية والمغولية ، واضطراب عاصمة الخلافة ببغداد ، ومثل هذه الظروف بطبعها تدفع الناس إلى الله تلقائيا ، وقد جرّبنا نحن أخيرا فى العاشر من رمضان ، فمن أجل هذا وما هو منه ، أو يتعلق به ، كان هذا الازدهار الذى تشير إليه .

* * *

السؤال السادس

من الاتهامات الموجهة إلى التصوف :

(أ) أنه لا سند له من الكتاب والسنة ·

(ب) أنه دخيل على الإسلام ·

(جـ) أنه يدعو إلى عقائد تتعارض مع عقيدة التوحيد ، كالحلول ، والاتحاد والوحدة ·

(د) أنه يدعو إلى تقديس المشايخ ، والاستعانة بهم فى الشدائد ، واعتقاد أنهم يملكون النفع والضر ·

(هـ) أنه يدعو إلى التواكل والسلبية ·

الجواب :

(أ) أما أن التصوف لا سند له من الكتاب والسنة · فقول ساقط بعد كل ما قدّمنا ، فإذا لم يكن التعبد ومكارم الأخلاق ومحاسبة النفس ، والأخذ بالأحوَط ، ومجاهدة الهوى والشيطان ، إذا لم يكن كل ذلك له سند من الكتاب والسّنة ، فقد جهل النّاسُ الكتاب والسنة ، وفيما قدمنا أدلة مكررة على أن تصوف المسلمين هو عصارة الإسلام وإكسيره ، لا يمترى فى ذلك إلاّ ذو هَوًى ، أو مَن هوًى !؟

(ب) وبهذا ، وبالذى قدّمنا ، يتأكد أن التصوف نابع من العقيدة ، والبيئة الإسلامية جملةً وتفصيلا ، وليس هو بدخيل على دين الله ، إنما الدخيل ، هو هذه الدعوى العصبية المتشنجة ، التى تفوح بالغرض ، والمرض ، وحسبك أنها بضاعة استشراقية ، استعمارية صهيونية ، لا هم لها الا انتقاص الإسلام ·

(جـ) أما أن التصوف يدعو إلى عقائد الحلول والاتحاد والوحدة ، فليس هذا هو تصوف المسلمين ، وإنما هو تصوف أجنبى ، أعجمى ، مدسوس ، والمتهمون به نفر معدود محدود ، انتهى أمرهم ، وليس لهم اليوم تابع ولا وارث ، كما قدّمنا ، وأصبح ما نُسب إليهم بحق أو

بباطل، سواء قبلَ التأويلَ ، أو لم يقبله ، نوعًا من الحفريات التاريخية ، التى لا يتابعها إلا الهواة والمتخصصون ، إن وُجِد اليوم هواة ومتخصصون فى البحث عن مقابر الأفكار المهمَلة ، وإلا أصحاب الهوى الذى يُعمِى ويصم ، ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء ·

وقد أصبح الكلام اليوم فى هذا الجانب نوعًا من مجرد الإثارة والتشويه ، والعبث وإضاعة الأوقات ، والتشويش على أفاضل الناس ، وشراء العاجلة بالآجلة ·

وإنما يقول الصوفية بنوع معين من الفناء ، فصَّله الشيخ ابن تيميه فى (رسائله) بشىء من الإنصاف ، وأشار إليه الشيخ ابن القيم فى شرحه على كتاب الهروى[1]، وشتان ما بين هذا والقول الفاجر بالحلول ، والاتحاد ، والوحدة المنكرة ·

(د) أما أن التصوف يدعو إلى تقديس المشايخ ، والاستعانة بهم فى الشدائد ، واعتقاد أنهم يملكون النفع والضرر : فهذا كلام فيه تجاوز ومغالطة ؛ فإن التصوف يدعو إلى احترام الشيخ كوالد روحى ، وهو أدب إسلامى مقرَّر ، لا خلاف عليه · وفى الحديث الصحيح « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ولم يعرف لعالمنا حقه »[2]، ولا تنس تأديب الله للصحابة مع رسول الله ﷺ ، فهو أصل أدب التابع مع المتبوع[3]·

أما الاستعانة بدعاء الشيخ ، وابتهاله إلى الله فى شدائد أبنائه ، فهو أدب إسلامى ثابت ، يعرفه كل من قرأ (باب الدعاء) فى كتب المسلمين ·

---

(١) كتاب منازل السائرين لشيخ الإسلام : عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأنصارى الهروى الحنبلى الصوفى المتوفى سنة ٤٨١هـ، شرحه أبو بكر بن قيم الجوزية الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة ٧٥١هـ ، وسماه « مدارج السالكين » ·

(٢) رواه الترمذى عن ابن عمر ، وأبو يعلى عن أنس ، والعسكرى عن عبادة ابن الصامت ، والقضاعى عن ابن عباس ·

راجع كشف الخفا ومزيل الإلباس عن كثير من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس جـ٢ص١٧٣ ·لتستفيد· «والمقاصد الحسنة»ص٣٥٦ · (٣) راجع سورة الحجرات ·

أما أنهم يزعمون أنهم يملكون النفع والضرر ، فالذى يملك ذلك هو الله وحده ، وعندما يغضب الشيخ لربه من مخالف لله فيدعو ، فيغضب الله لغضب وليه ، ويستجيب له ، فلا يقال عندئذ إن الشيخ يملك نفعًا ولا ضرًا ، إنما هو من باب : « لئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه »[1] من حديث البخارى .

والقول بغير هذا إنما هو مسخٌ للصورة بالمغـالاة ، والإغراق والتنفير .

وإذا كان هناك شىء من ذلك (فرضًا جدليًا) فهو مما يعالَج بالبيان والإرشاد والقول الطيب ، ونحن فى أمة تحكمها الأمية ، فلا ننكر أن فيها ضلالة وجهالة ، وإنما فى حاجة - أشد الحاجة - إلى النصح والتوجيه بالحكمة البالغة ، والموعظة البليغة .

(هـ) بقى القول بأن التصوف يدعو إلى السلبية والتواكل .

التصوف الحق هو : الإسلام ، وليس فى الإسلام سلبية ، ولا تواكل ، وإنما هى أمراض اجتماعية لصقت بالتصوف زورًا وبهتانًا ، وقد كان عبد الله بن المبارك ، يحج عامًا ويجاهد عامًا ، وقد كان شقيق البلخى فارسا مغواراً ،يطلب الموت حتى استشهد فى سبيل الله ، وكذلك كان حاتم الأصمّ ، مقاتلا بارعًا ، له فى الجهاد مواقف وكرامات .

وقدّمتُ أنّ أبا الحسن الشاذلى كان صاحب مزارع وتجارات ، وأن شمس الدين الدمياطى بنى برج دمياط من ماله الخاص ، ومن ربحه من تجارته .

واذا تتبعتَ آداب المريدين بكتب الصوفية ، لوجدتهم جميعًا يدفعون تلاميذهم إلى العمل والإنتاج ، ويعرفون تماما كلّ ما ورد فى هذا الباب عن النبى ﷺ ، ثم عن أشياخهم فى الله الذين يؤكدون لهم أنه لا

---

(١) ومن نصوصه ، مارواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « ما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ، وقلبه الذى يعقل به ، فإذا دعانى أجبتُه ، وإذا سألنى أعطيته ، وإن استنصرنى نصرتهُ ، وأحَبُّ ما تَعبَّدنى عبدى به : النصحُ لى » .

يمكن تحقيق خلافة الله على الأرض بالسلبية والتواكل والاستسلام ، فإذا تغالى أو تطرّف واحدٌ ، فليس هو كل واحد .

ولقد ثبت في الحديث أن بعض الصحابة تغالى بأكثر مما يفعل الرهبان ، والنبى ﷺ حيّ ، فنهاهم الرسول ﷺ[1]، فإذا انفرد واحد بمغالاته ، فليس هذا بقانون ولا قاعدة في الجميع ، ولا بعار يؤخذ به سواه .

نزل أحد المريدين على زاوية الشيخ ضيفًا ، فأقراه ثلاثة أيام .

ثم قال له : يا ولدى قد انتهت مدة الضيافة .

فقال المريد : انما جئتُ لأتصوّف .

قال الشيخ : « ليس التصوف عندنا أن تَصُفَّ قدميك وغيرك يمون لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ، ثم تصوَّف ، ثم اجعل منشارك مسبحتك ، واذكر على دقات الفأس والمكوك » .

وقد كانت الألقاب الصوفية تدل على ما يتناولونه من حرف ومهن وصناعات :

فمنهم الدقّاق ، والسمّاك ، والورّاق ، والخوّاص ، وهكذا تعرف أنهم كانوا بحق أمثالا للمسلم الكامل إيمانًا ، وعملاً ، وإيجابيةً ، وصلةً كبرى بالله .

فالتواكل مرض دخيل على التصوف الصحيح ، يعالجه صوفية العلماء ، كلٌّ بأسلوبه .

* * *

---

(١) وحديث نهى النبىّ ﷺ عن التبتل متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد ، وأبو داود عن سعد ، وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سَمُرَةَ .

وروى الدارمى عن سعد بن أبى وقاص ﷺ أنه قال : « لما كان من أمر عثمان ابن مظعون الذى كان مِن ترك النساء ، بعث إليه رسول الله ﷺ :

فقال : يا عثمانَ إنى لم أومر بالرهبانية » .

وروى البغوى فى معجم الصحابة ، والطبراني فى معجم الصحابة كذلك أنعثمان بن مظعون قال : يا رسول الله : إنى رجل تشق علىَّ هذه العزوبة فى المغازى فتاذن لى يا رسول الله فى الخصاء فأختصى ؟

قال : لا ، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة » .

السؤال السابع

أولياء الله ، من هم ؟

وهل يجوز تعيين ولى لله بالاسم ؟

وهل الولاية تورَث بالأسرة ؟

الجواب :

أولياء الله هم عباده الصالحون ، الذين نسلّم عليهم فى كل صلاة ، كلما قرأنا التشهد ، وعلى رأسهم الأنبياء ، عليهم صلوات الله وسلامه ، ثم يليهم فى ولاية الله أتباعُهم ، فأصحاب سفينة نوح ، وأصحاب ميقات موسى ، والحواريون مع عيسى ، والراشدون ، ومَن تبعهم بإحسان ، والأئمة من أمة مولانا رسول الله ﷺ ، كُل أولئك ، ومَن على أقدامهم هم الأولياء الذين « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والشرط فى الولى : الإيمان ، والتقوى ، كما جاء فى الآية ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[1] ثم (الصلاحية) للنيابة عن حضرة المصطفى ﷺ ﴿ والله يتولى الصالحين ﴾[2] فالصلاح هنا بمعنى الصلاحية التى تستوجب كفايةً معينة فى الجوانب الثقافية والروحية ، والذاتية والتعبدية ، حتى يكون العبد أهلاً للتبليغ ، ووراثة النبوة ، وسيادة البشرية ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[3].

وهنا ينكشف البَونُ الهائل ، ما بين (الولاية) و (البلاهة) ، وما بين (الولاية) و (الاحتراف) ، وأن الولاية كسبٌ غال بمجهود أغلى ، أو هى اجتباء بحكم المشيئة الإلهية ، كما جاء بالآية ﴿ الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب ﴾[4].

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ١٨ .

(٢) لقوله تعالى ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ من سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥ .

(٤) سورة : الشورى ، الآية : ١٣ .

وتعيين رجل توافرت فيه الشروط بوصف الولاية ، لا يتعارض مع مبادىء الإسلام - فيما أعرف - وقد وصف علماء الحديث رجالاً بأوصافهم بلا حرج .

أمّا أنّ الولاية ميراثٌ حتمى : فذلك ما لا علم للتصوف به .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أننى أتحدث عن (التصوف) ، وهناك شىء آخر نسميه (التمصوف) وهذا هو الذى أساء إلى التصوف ، ومازال ، وسوف يبقى كذلك ، ما لم يشأ الله شيئا . وما لم ينقذ الله التصوف من التردِّى الذى يعانيه .

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن للولاية معانٍ شتى جاءت بها كلمات القرآن والحديث ، تدور حول أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان ، وقد حصرنا الكلام هنا ، فيما نرجح أنه المقصود وفى الحجم المطلوب للصحيفة . (فنحن هنا نقدم للقارىء عناوين ومؤشرات فقط ، وللبحوث مقام آخر)

* * *

السؤال الثامن

لماذا يبدى الصوفية ولعًا شديدا :

(أ) بإقامة الأضرحة ؟

(ب) وبإقامة الموالد ؟

(جـ) والتماس بركة الموتى ؟ ·· وما سند ذلك من الكتاب والسنة ؟

الجواب :

(أ) : الصوفية لا ييأسون من الموتى ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾[1] وهم يرون أن الموت مرحلة من مراحل السفر الإنسانى الكادح إلى الله ، فالميت عندهم حىٌ حياة برزخية ، وللميت علاقة أكيدة بالحى ، بما صح عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، ردِّ الميتِ السلامَ على الزائر ، ومعرفته ، وبتشريع السلام على الميت عند قبره ، ومحادثته ﷺ لموتى (القليب يوم بدر) ، كما وردت فى عدة أحاديث ثابتة ·

ومن القرآن حسبك قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾[2].

فهناك إذن علاقة مؤصَّلة بين الحى والميت ، وإلا كان الدعاء والسلام على الميت موجهًا إلى الأحجار !!

ومعنا ، زيارة الرسول ﷺ لأهل البقيع ، والسلام عليهم ، وتكليمهم والدعاء لهم ·

وللإمام ابن قيم الجوزية (تلميذ ابن تيمية ، وحواريه ، ووارث دعوته) له كتاب (الروح) وقد أثبت فيه كل مذهب الصوفية ، بما لا مزيد عليه ، فى موضوع الحياة بعد الموت ، وعلاقة الأرواح بالأحياء ، ولابن أبى الدنيا فى ذلك تأليف مفيد ·

---

(١) آخر سورة الممتحنة ·

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٠ ·

والصوفية يعتقدون : بحق - أن الولىَّ فى الدنيا ولىٌّ بخصائصه الروحية ، ومواهبه الربانية ،والخصائص والمواهب من متعلقات الأرواح ، ولا ارتباط لها بالأجسام ألبتة ، فالولى حين يموت ترتفع خصائصه ومواهبه مع روحه إلى برزخه ، ولروحه علاقة كاملة بقبره ؛ بدليل ما قدَّمنا من السلام عليه وردِّه السلام ... إلخ . ومن هنا جاء تكريم هؤلاء السادة الصالحين من أصحاب القبور .

وقد ثبتّ أن رسول الله ﷺ وضع حجرًا على قبر بعض الصحابة ، هو عثمان بن مظعون رضي الله عنه[1]،وقال : « أتعرَّف به قبرَ أخى » وكان هذا الحديث ، بعد حديث على رضي الله عنه بتسوية القبور المشرفة ، فاستدلُّوا به على جواز اتخاذ ما يدل على القبر ، وعلى فضل صاحب القبر ، بلا إغراق ولا مبالغة ، رجاءَ استمرار زيارته ، والدعاء له ، والقدوة به ، والصدقة عليه ، وحفظ أثره .

ومن هنا جاز نقلُ الميت من مكان إلى مكان أفضل ، كما صحَّ فى حديث جابر وغيره .

ثم بالغ بعض الناس فى ذلك - بحسن نية من جانب ، وخوف اندثار القبر من جانب آخر - فاتخذ الأمرُ بالتطور الصورةَ التى تراها ، وقالوا : إن الأمر يدور مع علته ، وقد كانت علة تسوية القبور ، والمنعُ الأول من زيارتها ، هى مخافة الانتكاس والعودة إلى الشرك ، وقد استقر الإيمان والتوحيد فى قلوب الناس ، (وإن أخطأت أحيانا ألسنتهم) فلا بأس بعمل ما يُذكر بالصالحين للقدوة و الاعتبار ، والقيام بحق صاحب القبر من الزيارة وغيرها .

(وقد نقلنا آراء علماء المذاهب فراجعها فيما يأتى) .

هذه هى وجهة النظر عندهم بصفة عامة : وهى - على علاّتها - أبعدُ شيء عن التهويل بالشرك والوثنية ، والكفر والردَّة ، واستحلال

---

(١) فى أسد الغابة « أنه لما توفى سيدنا إبراهيم بن رسول الله ﷺ قال : « الحق بالسلف الصالح : عثمان بن مظعون » . وأعلمَ النبى ﷺ قبرَ عثمان بن مظعون بحجر ، وكان يزوره » .

دماء المسلمين ، وقد مرَّت مئاتُ السنين على هذه الأضرحة ، فما عُبِدَ منها ضريح من دون الله ، ولا صَلَّى مسلم لِولىٍّ ركعةً ، والمثل العملى مضروب بقبر سيدنا رسول الله ﷺ وقبور كِبار الأئمة ·

أما ما يكون عادةً من بدع الزيارات ومناكرها ، فأمور يمكن تقويمها بالتعاون على علاجها بالتى هى أقوم ·

وإننى مستيقن - سلفًا بأن هذه الكلمات بالذات ، ستنبرى لها ألسن وأقلام احترفت خصومة هذا الرأى ، واتخذته أساسٍ مذهبها ، وهو كل دعوتها وبضاعتها ، ولكننى أعرض الرأى ، ولا أدَّعى العصمة ، ولا أحتكر الصواب ، وأرى أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ عليه ، إلا ما جاء عن الله ورسوله · بقدر ما أعرف سلفا ، كافة النصوص المقابلة ، ووجهات النظر الأخرى ، فالحديث هنا قديم مكرر ، لا جديد فيه على الإطلاق ، والتقريب بين وجهات النظر ممكن · ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله ، وارجع إن شئتَ إلى ما كتبناه بتفصيل عن التوسل والقبر فى رسالة (قضايا الوسيلة والقبور) ·

(ب) **أما الاحتفال بالموالد**: فهو ما لم يكن بصورته هذه فى الصدر الأول ، وهو - على وضعه الحالى - فيه المقبول والمرفوض ، وإن كان المرفوض قد غلب فعلاً على المقبول ، ولا بد من وقفة إصلاح ؛ فإن القائلين بالإلغاء يطالبون بغير الممكن أصلاً ، ولا ينظرون إلاّ إلى الجانب المرفوض وحده ·

إن أول من احتفل بذكرى المولد النبوى ،هو الملك المظفر (طغرل) ملك (إربل) بالعراق ، بموافقة الإمام أبى شامة ، والعلماء ·

ثم التقط الفاطميون الحبل ، فزادوا وتوسعوا ·

وقد التمس علماؤنا الدليل ، فوجدوا أن الله كرم يوم الولادة ، ويوم الموت ، والبعثَ مرتين ، مرة بلسان القرآن ، وأخرى حكاية عن لسان عيسى عليه الصلاة والسلام[1] · إذن، فليوم الولادة منزلة عند الله ،

(١) ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ - ﴿ والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ (سورة مريم) ·

ثم نظروا فوجدوا أن رسول الله ﷺ كان يلازم صوم يوم الاثنين من كل أسبوع ا فسئل في ذلك ، فقال : « هو يومٌ ولدت فيه ، وأنزل على فيه » كما ثبت في الحديث الشريف .

ومعنى هذا : أنه ﷺ كان يُحْيِي ذكرى مولده الشريف ، شكراً لله تعالى في كل أسبوع مرةً بالصيام ، وربما بما تيسر له من خير ، فهو يوم من أيام الله ، وقد اهتم رسول الله ﷺ بأيام الله ، كما فعل في يوم عاشوراء ، وكما فعل في (سبوع) الحسن والحسين ، بالإضافة إلى ما ورد من أنه ذبح (ﷺ) في حجة الوداع ثلاثًا وستين بدنة ، بعدد سِنِي عمره الشريف .

ومن مجموع هذا ، وما هو منه ، يمكن استنباط مشـروعية إحياء الموالد ، لما فيها من الذكريات النافعة ، والعبر الموجِّهة ، وبما فيها من تلاوة القرآن ، والوعظ والإرشاد ، والذكر الصحيح ، والثقافة ، ثم بما فيها من التعارف على البرِّ والتقوى ، والرواج الاقتصادي والصدقات ، والحركة الاجتماعية ؛ فهي بهذا الوصف أسواق خير ونفع عام لا تضيق به أصول الأحكام الشرعية ، ولا فروعها ، بل إنها تدعو إليه ، وتحض عليه .

ثم إن الله تعالى يقول : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[1]ويقول ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » وقد أمرنا الله تعالى أن نفرح بفضله ورحمته ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ﴾[2] فإحياء ذكرى مولد الرسول ﷺ بالمشروع من العبادات والخيرات ونحوها ، إنما هو فرح برحمة الله ، فهو تنفيذ لأمره تعالى .

كذلك نحن مأمورون بالشكر على النعمة ، وما جاء به رسول الله ﷺ هو النعمة العظمى ؛ فإحياء ذكرى مولده ﷺ بشروطها : نوع من شكر النعمة ، وهو واجب قرآني صريح .

وعلى نحو ذلك أو بعضه ينسحب حُكْمُ مشروعية إحياء ذكريات موالد أولياء الله جميعا ، بشروطها المقررة .

---

(١) الأنبياء : الآية : ١٠٧ . (٢) سورة : يونس (ﷺ) ، الآية : ٥٨ .

وهنا يجب أن نقرر أيضا القاعدة العلمية الثابتة : بأنه ليس كل ما لم يكن فى الصدر الأول هو حرام ، وإلا فلم يبق فى حيـاتنا شىء حلال .

وفيما عدا هذا - مما اندسّ فى هذه التجمعات من المفاسد الخلقية والدينية والاجتماعية وغيرها - فالحكومة والصوفية الرسمية ، والجمهور ، هم المسئولون جميعًا عنها ، فى الدنيا والآخرة . وهو شىء عَمَّ وطَمَّ . وأورث الهمَّ والغمَّ .

* * *

السؤال التاسع

يقول الصوفية بضرورة وجود الشيخ ، لتوصيل المريد إلى ربه ، ويقولون : من لا شيخ له فالشيطان شيخه ، فهل هذا صحيح ؟

الجواب :

يا ولدى : الصوفية فى هذا يصدرون عن صحيح الشريعة ، وصحيح الطبيعة ، وصحيح التجربة ، وصحيح الممارسة والواقع .

أما الشريعة، فالله تعالى يقول : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾[1] ويقول : ﴿ الرحمن : فاسأل به خبيرا ﴾[2] ويقـول : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾[3] ويقول : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾[4] ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[5] ﴿ واتبع سبيل من أناب إلىَّ ﴾[6] ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ﴾[7] . وفى الحديث الثابت : « هلاَّ سألوا ، فإنَّ دواءَ العىِّ السؤال ! »[8] .

وإذن : فلابد من هاد قدوة سئول ، ذا ذكر ، خبير بوسائل الفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، أَلم ترَ إلى موسى كيف طلب المرشد ليتبعه ، كما جاء فى سورة الكهف ، وكيف كان أدب موسى مع مرشده .

ولذا كان لا بد لطالب حفظ القرآن من المقرىء الموقف الخبير بأحكام التلاوة ، وصحة الأداء ، ولو تُرِكَ القارىء العادى لنفسه ،

---

(1) سورة الأنبياء ، الآية : ٧ .

(2) سورة الفرقان ، الآية : ٥٩ .

(3) سورة الرعد ، الآية : ٧ .

(4) سورة فاطر ، الآية : ١٤ .

(5) سورة الأنعام ، الآية : ٩٠ .

(6) سورة لقمان ، الآية : ١٥ .

(7) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

(8) رواه ابن ماجه ، وأبو داود ، والإمام أحمد ، والدارمى ، والدارقطنى ، راجع « كشف الخفاء » جـ ١ ص ٢١٣ ، فالحديث بطوله وتخريجه هناك .

لاستحال عليه أن يحصّل حق التلاوة وصحة الأداء ، وبالتالى ربما اضطربت معه مفاهيم الآيات ، وغابت الأحكام ، وقُلْ مثل ذلك فى كل علوم الدين واللغة ، وكل علوم الدنيا فكريةً كانت أم عملية ، حتى الحِرَف والمهن والصناعات ، مهما علت أو دنت ، لا بد لها من اختصاصى يُلقنها ويكشف أسرارها . فما لم يكن للمرء شيخ فى العلم : ضل وافترسه الشيطان ، واستهواه ، وجعل إلهه هواه ، فهلك .

وما لم يكن للمرء معلّم فى بقية الصناعات لما أصاب ولا أجاد ، وربما هلك وهو يطلب الحياة ، ومن هنا كان لا بد للسالك إلى الله من إمام يرشده ويوجّهه ويسدّده ، ويكشف له أحابيل الشيطان ، فى العبادات والمعاملات ، والخطرات النفسية والإرادات القلبية ، والواردات التى قد تكون أخطرَ على صاحبها من الكفر الصريح .

يا ولدى : فكّر فى موقف الإمام فى الصلاة ، وفى تلقى الرسول عن جبريل عليهما الصلاة والسلام .

ولهذا سجّل كبارُ أئمتنا أخذهم وتلقيهم عن كبار شيوخهم ، كابرًا عن كابر ، بالإجازة الشريفة ، والثبت المحكم ، سواء فى العلوم ، أو فى تلقّى البيعة الصوفية ، واتصال السند ، ولا يزال فى عصرنا هذا يستعد الطالب لأعلى درجات الثقافة (الدكتوراه مثلا) ولا بد له من مشرف يشاركه رحلة العلم والجهد ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾[1] .

وقد تلقينا من قواعد أهل العلم (غير الصوفية) قولهم : « لا تأخذ العلم من صُحُفى ولا القرآن من مُصْحفى » .

و « **الصحفى** » : هو الذى جمع محصوله من الصحف وحدها ، دون مرشد .

و « **المصحفى** » : من قرأ القرآن وحده ، من غير موقف ، وهذا مجرَّح عند أهل العلم .

ثم تأمل مرة أخرى بعثةَ الرسل إلى الناس ، ونزولَ جبريل ﷺ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتوجيه والهداية .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٦ .

ولا تنس يا ولدى : أن التقـاء روح الطالب والأستاذ ، وتبـادل الود ، ووحدة الإرادة ، واندماج الشخصيتين بالحب والتسامى ، وقصد وجه الله : فيه أثر روحى ونفسى مقرر عند أهل العلم بالقديم والحديث ، وحين يكون السند موصولا ، يكون من ورائه سر مجرب ، يسميه الصوفية (بركة السند) ، وإن لم يؤمن الجاهلون بسره . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه ﴾[1] تأمل ، فمن هنا تبدأ البركة ، ثم تتسلسل !!

وأظن فى هذا الإجمال كفاية إن شاء الله ، وإلا فـ ﴿ إنك لا تهدى مَن أحببت ﴾[2] .

* * *

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٦ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٥٦ .

السؤال العاشر

(أ) ما هو الحكم فى استخدام الرقص والطبل والزمر والغناء (والحركات غير اللائقة فى كثير من حلقات الذكر) ؟!

(ب) تحريف أسماء الله تعالى ؟!

و (أه ، أه) أو (هٔ ، هٔ) ؟!

(جـ) ترديد لفظ : (هوَ آه) ؟!

(د) إصدار الأصوات الساذجة بنحو (هَا) و (أه ، أه) أو (هه ، هه) ؟!

(هـ) اشتراط أن يتخيل الذاكر شيخه بين عينيه ؟!

(ز) الاعتراف للشيخ بالذنوب والمعايب ؟!

الجواب :

أشرتم إلى أننى - وأستغفر الله - من قادة الفكر الدينى المعاصر ، وأحد المصلحين الصوفيين ،فجزاكم الله عن حسن الظن بحسن الثواب ٠

وأنا امرؤٌ أعرف - بحمد الله - نفسى فلا أعدو قَدْرى ٠ ولا استشرف إلى هذه القيمة المتسامية ، لكننى لا أنكر فضل الله علىّ فى أننى شاركت - بكل طاقتى - فيما زعمتُ لنفسى أنه يُرضى الله - من خدمة التصوف خاصة ، والإسلام والوطن عامة ، ولا أزال بحمد الله رغم ما أعانى ٠

ولا بد من تسجيل حادث تاريخى فريد ، مما عانيت فى سبيل الإصلاح الصوفى (ولا أزال) ؛ ففى الخمسينات ، عندما ألححت فى المطالبة بالتطوير ، والإصلاح الصوفى ، حتى استجابت الحكومة ، وألَّفت لجنة للإصلاح الصوفى برياسة محافظ القاهرة ، وكنت مقرر هذه اللجنة بوصفى صاحب الاقتراح ، وخبيراً فى الشئون الصوفية ، ثم شُكلت لجنة من بعدها برياسة وزير الأوقاف لنفس الغرض ، وكنت مقررها أيضا لنفس السبب (وكان الوزير فضيلة الأخ الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى رحمه الله تعالى) ٠

من أجل ذلك : اجتمعت الجمعية العامة للطرق الصوفية من أكثر من ستين شيخًا بمسجد الإمام الحسين ، وقررت بالإجماع (فصلى نهائيا من الطرق الصوفية) وتجريدى من النسبة إليها !!

وكانت هذه أول مرة فى التاريخ الصوفى الرسمى ، يُفْصل فيها (شيخ) !! حتى رد « مجلس الدولة » إلىّ اعتبارى !؟ وكانت قصة ، إنما هى غُصةٌ ، ويكفى التلميح إليها لتعرف كيف أحيا ماضيًا على شظايا الزجاج المحطَّم بين (أعداء) التصوف ، و (أدعيائه) وهذا قَدَرِى ، ولا يَزَالُ .

ثم كان من فضل الله : أن استمرت الحكومة فى النظر فى هذا الإصلاح على أساس مذكراتى وتقريراتى السالفة ، وغيرها ، حتى صدرت اللائحة الصوفية الأخيرة - بعد ولادة طويلة عسيرة - كخطوة كبيرة ، فى سبيل تطهير التصوف وتطويره وإصلاحه ، وقد سجلتُ بعض ملاحظاتى عليها ، وإن كانت اللائحة فى مجملها شيئا حسنا فى خدمة تصوف المسلمين - إن أمكن التطبيق الصحيح - رغم ما لى عليها من مآخذ أساسية .

وبعد :

أولاً : فأما استخدام الرقص ، والطبل ، والزمر ، والغناء - فيما يسمى حلقات الذكر - فليس من دين الله (قولاً واحدًا) سواء عند أئمة الصوفية ، أو غير الصوفية ، وإنما هو من الدخيل ، والدسيس الذى تسلل إلى التصوف ، فأفسده ، وأساء إليه .

ينقل الشيخ (ابن الحاج) فى (مدخل الشرع الشريف) :

قلنا : وقد عاب الله نحو ذلك على المشركين من قبل ، فقال : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ، إلا مكاء وتصدية ﴾[1]، يعنى تصفيرا وتصفيقا ! وهما من لوازم الطبل والزمر والرقص !!

إن الرقص ، والطبل ، والزمر ، لا شك هو لهو ولعب ، فإذا اتخذناه دينا ، كان افتراء على الله ، وهو تعالى يقول : ﴿ وذروا الذين

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٥ .

اتخذوا دينهم لهواً ولعبًا ﴾[1] ، و﴿ لعبا ولهوا ﴾[2] كما فى آيتى (الأنعام والأعراف) والله لا يأمر بترك شيء هو قربة إليه ، فإذا كرر الأمر كان معنى هذا أنه شيء يغضب له غضبا مضاعفا ، لما فيه من تعدٍّ عن حدوده تعالى ، وعلى حدوده ، يقول شاعر الصوفية :

يا عصبــةً مـا ضَرَّ أمةَ أحمد   وسعى على إفسـادها إلاّ هي
طارٌ ، ومزمارٌ ، ونغمةُ شادن   أتكون قطّ عبادةٌ بملاهى ؟!

وإنما يُعبد الله بما شرع وفيماَ شَرع تعالى سعة وكفاية ، ومتعة روحية بغير حدود ، والعبادة جد كلها ، وهو تعالى يقول : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ، لاتخذناه من لدنا ، إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ﴾[3] ومَن شاء لهواً مباحا،فليبتعد به عن العبادة ، وعن التصوف ٠

ولوجه الله ، وللحق فى ذاته ورغم ما أصابنا ، ولا يزال - فى سبيل التجديد والإصلاح الصوفى - نقرر أن مشيخة الطرق الصوفية المعاصرة ، أصدرت عدة منشورات ، تنهى فيها عن هذا العبث ، ولكن هناك أهواء ، وخلفيات ، ومواريث ، ومصالح ، ونوع من الجَهَلُوت[4] المستحكم ، والاقتدار ، بل الإصرار على المخالفة ٠ كل ذلك يقف دون التنفيذ الواقعى لهذه المنشورات ، حتى كأنها لم تكن ، ولكن لا بد لهذا الليل من آخر ٠

ثانيًا : أما الغناء والإنشاد ؛ فإن كان ملتزمًا ، وبشروطه المشروطة شرعًا ، فإنّ له أصلاً فى السنة الصحيحة ؛ ففى البخارى وغيره أن سيدنا رسول الله ﷺ كان أصحابه - وهو يشارك فى بناء مسجده الشريف ينشدون :

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا   ولا تصـدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا   وثبِّت الأقـدام إنْ لاقينا

(١) الأعراف ، الآية : ٥١ ٠

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٧٠ ٠

(٣) سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، الآية : ١٧

(٤) الجهل المتأصِّل فى النفس ٠

إلى آخر ما قالوا بأصوات منغمة طبعًا على لحون العرب !!

كما ورد أنه ﷺ كان يردد نحو هذه المقاطع على من كان ينشد مع المرددين من الصحابة ، سواء في بناء المسجد ، أو حفر الخندق أو غيره ، وقد استمع ﷺ حُداء « عبد الله بن رواحة » وأقره ، وحسبك فى رضاه ﷺ عنه قوله لابن رواحة يومًا عندما تزايد خطو العيس « الإبل » على حُدَائه أن قال له ﷺ : « رويدك ، رفقًا بالقوارير » ! يريد النساء من خلف الركب ، منهن من لا يقوين على شدة خطو الإبل المأخوذة بجَمال الحُدَاءِ وحُسنِ الصوتِ ، ورقة الأداء والتلحين[1] .

وقد ثبت أنه ﷺ كان يستمع لبعض « الأراجيز » فى بعض المناسبات ، والأراجيز شعر يُنشد منغمًا بلحن عربى موروث ، فهو ضرب جاد من الغناء العفيف ، فضلاً عمّا كان يستمعه من الشعر (بلحون العرب) وأصواتها بمسجده .

وتأثُّر النفس الشريفة باللحن والصوت الجميل طبيعة فى الإنسان الكامل ، لا ينكرها رجل سَوِيٌّ قط ، ألا ترى أنه سوف يكون من متع الجنة أن يستمع أهلوها كلامَ الرحمن عزَّ وجلَّ ، وكيف اختار رسول الله ﷺ (بلالاً) للأذان ، وكيف كان العرب يضربون المثل بصوت وأداء (أبى محذورة) أحد مؤذِّنى النبى ﷺ ، وكيف أنه ﷺ أقام منبرًا لحسّان فى المسجد ينشد الشعر عليه منافحًا .

ولقد استمع ﷺ لصوت ابن مسعود ، فقال : « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود »[2] كما جاء فى الحديث الصحيح .

---

(١) تواتر أنه ﷺ استمع إلى غناء الجوارى ، عند دخوله المدينة كما استمع إلى المرأة التى نذرت أن تضرب له الدف وتغنى .

(٢) الحديث بهذا اللفظ رواه الإمام أحمد والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة والنسائى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها .

وروى أبو نعيم فى الحلية قوله ﷺ عن أنس : لقد اوتى أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود » وروى محمد بن نصر : « لقد أوتى أبو موسى من أصوات آل داود » .

وكان رسول الله ﷺ يرتل القرآن ، ترتيلاً يأخذ بمجامع قلوب الصحابة ، فيتمنون لو أنه أطال وبالغ .

وفي الصحيحين حديث : « حسن استماع الله للنبي حَسَن الصوت بالقرآن »[1].

ثم ألا ترى أن الله أبغض الصوت الكريه ، فقال تعالى : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[2]!! ومن مجموع هذا ، وما هو منه (وهو كثير) يمكن الحكم على الإنشاد الملتزم بالمشروعية على أقل صور الأحكام ، إن لم يكن السنيَّة ، أو الندب ، أو الاستحسان ؛ فإنَّ من الإنشاد ما يرتقي بالمرء إلى أسمى معارج الأرواح ، إذا كان رقيق القلب شفيف الروح .

وقد أُثِر عن بعض كبار شيوخ الأزهر ، قوله : « من لم تطربه الأوتار ، علَى شواطئ الأنهار ، في ظلال الأشجار ، وغريد الأطيار ، وجوار الأزهار ، والنسيم المعطار ، ذاكراً فردوس العزيز الغفار : فهو حمار من حمار .. » .

ثالثا : أما تحريف أسماء الله الحسنى في حلقات الذكر : فإجماع أئمة التصوف على أنه حرام موبق ، وحسبك فيه قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ، فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه ، سيجزَوْن ما كانوا يعملون ﴾[3] فهنا أمرٌ بالذكر ، مع نهي شديد عن تحريفه ، والتحذير من الصلة بمن يحرفونه ، أي يلحدون فيه ، وإعلان أنهم سيُجزون بسوء عملهم ، فيكون هذا الإعلان بمثابة إنذار ، ونهي شديد مكرَّر ، حتى نَدَع مَن يحرِّفون أسماءه تعالى ، فكيف بحكم المحرِّفين أنفسهم !؟

وهذا الإلحاد يشمل نحو قولهم « ها ، ها » أو « هي ، هي » أو

(١) ومن ألفاظ الحديث : « ما أذن الله لنبيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرءان : يجهره » .

(٢) سورة : لقمان ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٠ .

« آه ، آه » وغير ذلك من الأصوات الساذجة الحمقاء ، التى لا تكون أبداً من كرام الناس ، ولا أفاضلهم : لا أسلوبًا ، ولا أداءً ·

لكن المأخوذ عن نفسه ، لا يؤاخذ ؛ لأنه ممن رُفع عنه القلم ولهذا وجبت التفرقة الشرعية بين هذا وذاك ·

وفى هذا يقول الشيخ الأخضرى فى أرجوزته الصوفية :

أبقَوْا مِن اسمِ الله حرفَ الهاء فألحدوا فى أعظم الأسماء

لقد أتوا واللهِ شيئًا إدًّا تخرُّ منه الشامخاتُ هَدًّا

ويلحق بهذا نطقهم باسم (الله) على غير وضعه الشريف ، من نحو ضمّ ألفه الأولى أو كسرها ، مع قصر ألفه الوسطى، ومع تخفيف لامه أو تغليظها ، مما يُخرجه عن منطوقه القرآنى إلى منطوق سوقى محرَّم ، وخصوصًا مع ما يسمّونه (الدوْكة) أى تغليظ الصوت ·

(ب) أما قولهم (هو ، هو) : فهذا اللفظ (ضمير الغائب لغةً) وقد ورد فى القرآن الكريم كثيرًا من نحو قوله تعالى : ﴿ الله لا اله إلا هو ﴾[1] وقوله : ﴿ هو الحى لا إله إلا هو ﴾[2] فهو الغائب عن النظر ، المشهود بالبصيرة ، وقد أفرد الإمام الفخر الرازى فى تفسير الفاتحة بحثًا ضافيًا، أثبت فيه أن لفظ « هو » ربما كان اسم الله الأعظم ، بنحو عشرين دليلاً ، ونحن فى ذلك معه ·

فالمسألة فى لفظ (هو) - على اسوإ الأحوال - خلافية ، وما دام فى الأمر وجهان ودليلان ، فإنه يسعنا ما يسع غيرنا ﷺ وليس من العدل تجريم من اختار أحد الوجهين لصحة دليله عنده ، والفروع كلها محل خلاف !!

والقاعدة : « متى دخل الاحتمال ، بطل الاستدلال » ·

(جـ) أما لفظ (آه) فلم يثبت علميا أنه ذكر به إمامُ الشاذلية (أبو الحسن) ﷺ ولا كبار تلاميذه ، من أمثال : أبى العباس المرسى ، وابن

---

(١) آية الكرسى ·

(٢) سورة غافر ، الآية : ٦٥ ·

عطاء الله » والشيخ الحنفى ، ولم يرد له ذكر فى أهم مراجع التاريخ الشاذلى ، كـ« درة الأسرار » و « المفاخر العلية » ، « واللطائف » ، ولكنه منسوب إلى بعض كبار أئمة الشاذلية المتأخرين ، ولهم على مشروعية الذكر به أدلة شتى ، لعل من أقواها ، وأحكمها ما كتبه المرحوم الشيخ الظواهرى شيخ الأزهر الأسبق ، ثم ما كتبه المرحوم الشيخ عمران الشاذلى فى عصرنا الحديث .

ثم إن الذاكرين بهذا الاسم يقررون : أن له أثراً عظيما بالممارسة والتجربة ، ولا بد من مراجعة أدلتهم قبل الحكم لهم أو عليهم .

فهو أيضا نمط من الخلافات الفرعية . ومن الشاذلية مَن لا يذكرون به ، (كالحصافية ، والحامدية ،والمحمدية) ومن أشد الناس تمسكًا به فروع (الفاسية الشاذلية) .

وكان والدى ﷺ لا يستهجنه ، ولا يستحسنه ، ويقول : (أنا لا آمُرُ بهذا الاسم ، ولا أنهى عنه) .

وكان يقول : (إن عذرى معى فى التوقف فى هذا الاسم بما له ، وما عليه ، وما لا خلاف عليه خيرٌ مما فيه الخلاف)

قلنا : ونحن على الأثر ؛ فلا نعيب على من يذكر به بدليله ، ولا نلوم من لا يذكر به بدليله .

رابعا : **وفيمـــا يتعـلق باشتراط تخيل المريد شيخه عند الذكر بين عينيه** : فهم يقولون : إن المراد الأساسى من هذا ،هو استجماع الهمة ، وطرد الشواغل ، وتفريغ القلب لحسن التوجه ، والاستعداد للاستمداد ، فهو وسيلة - مؤقتة - للتجهيز لدخول حضرة الحق ، فإذا ما انحصرت الطاقة فى تصور الشيخ ، والنبى ، وهما يدفعان المريد إلى الله ، ويهيئانه للعمل ، ثم إذا أخذ المريد فى الذكر ، كان أول ما ينطرح عن المريد هو هذا الخيال الفانى ، فلم يبق إلا الله الباقى .

هذا هو أصل الموضوع عندهم .

وتخيل صورة الشيخ ليست شرطا ، ولكنها من الوسائل الاجتهادية والتجريبية النافلة . ولهذا لم يقل بها كثير من الشيوخ ، اكتفاء بصدق المحبة ، والرابطة بين المريد وشيخه ونبيه ﷺ ، حتى كأنه بينهما .

وفى هذا الموضوع بحوث نفيسة عميقة ·

وإذا عرفنا أن هذه الحالة - عندهم - إنما تكـون قبيل البدء فى التعبد ، ولمدة لحظات فقط · ثم يكون الذكر الذى يستغرق كل أحاسيس الذاكر ·

إن تخيُّل النبى ﷺ والشيخ عند الذكر ، أشبه شىء بما يخطر على بال المصلى من أخيلة الجنة والنار ، والإنس والجن، وأهوال الحشر ، وعظمة الله ، وهذه صور لا تُبطل الصلاة ، ولا تُتهم بالوثنية · فالموقف هنا وهنا واحد، وبالتالى يكون الحكم واحدا ؛ فقد انتفت دعوى الوثنية ، التى يُرمَى بها الصوفية - أو بعضهم - فى هذا المجال ، تهوراً ومجازفة ·

خامسًا : ثم تأتى قضية اعتراف المريد لشيخه بذنوبه وعيوبه ، فأى حرام فى هذا ؟

إنك عندما تذهب إلى الطبيب تذكر له كل مـا تشكوه ، ومـا يـؤلمك ·

وهذا الشيخ هو طبيبك الروحى فى الله ، وعقدة الذنب تؤرق صاحبها ، فهو يسأل طبيبه الروحى عما عسى أن يُطهِّره ويغسله من خطاياه ، وينقذه من آلامه ، ووخز الضمير ، وهو (النفس اللوّامة) فى لغة القرآن والتصوف ·

أليس كان يأتى الناس إلى رسول الله ﷺ ، فيقول أحدهم مثلا : « هلكتُ يا رسول الله ، فقد فعلتُ كذا وكذا » كما حدث مثلا : فى قصة « ماعز » وقصة « الغامدية » واعترافهما بارتكاب الخطيئة لرسول الله ﷺ على ما ذكره البخارى ومسلم ، وغيرهما ، فكان الرسول ﷺ يدل المعترف بخطئه على ما لو عمل به تقبَّله الله ، وعفى عنه ؛ فإنَّ من الفطرة ضرورة الإفضاء والاستنصاح « والدين النصيحة »[1] ·

أليس الله يقول ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾[2] .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه ، والبزار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ·

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٧ ·

ثم أن الآيات القرآنية كلها تدل على أن المؤمنين - بل وغير المؤمنين - كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ يستنبئونه ، ويستفتونه ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم . . ﴾[1] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله . . ﴾[2] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم . . ﴾[3] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك . . ﴾[4] الآية .

فكلها حَثٌ على المجيء إلى أهل الصلاح ، وطلب النصح منهم ، أو الفتوى ، أو التوجيه ، ولا يكون ذلك إلاّ مع بيان طلب الاستيضاح أو الاستفتاء ، فكان هذا جميعًا من أسباب الإفضاء إلى الشيخ بالذنوب أو العيوب ، طلبًا للتعرف على ما يُرضى الله ، وما يكون سببا للإنابة والمتاب .

ثم أليس يستشير الرجل مَن هو أعلم منه ، ليستفيد من تجربته أو خبرته أو سوابقه فى معاناة الأمور ؟

أليس يُفْضِى الأخُ إلى الأخ بما يؤرِّقه ويقلقه، طالبًا نصحه وتوجيهه ؟

وهل اتخاذ الشيخ إلا من أجل تنقية النفس من أوضارها ، وترقيتها فى معارج السالكين ؟

فلست أرى ممنوعا - شرعًا ، أو وضعًا - أن يطلب المريد نصيحة شيخه فيما واقعه من مثالب وخطايا ، ليدله على وسيلة النجاة ، وفى القرآن ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[5].

وأظن ما قدمتُه كافياً الآن ، فى هذا المجال

ولا اعتراض بأن : هذا يشبه نوعاً من الكهنوت فى الاعتراف لرجال

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٤٢ .

(٤) سورة الممتحنة ، الآية : ١٢ .

(٥) سورة الشورى ، الآية : ٣٨ .

الدين[1] ، فالفارق هائل ضخم ؛ فهناك يعتقدون أن مجرد الاعتراف كاف فى محو الخطيئة ، وأن الاعتراف الذى يقبله الكاهن ، يقبله الله حتما .

أما هنا : فإنما يدل الشيخُ مريدَه على ما به يرضى الله عنه ، من توبة واستغفار ، أو صدقة ، أو عبادة ، ثم يَدَعُ ما وراء ذلك لله وحده ، إن شاء قبل ، وإن شاء لا ، وهذا فارق ما بين الشرك والتوحيد .

* * *

(١) وهى كلمة « كنسية » ، وأما كلمة الإسلام فهى « علماء الشريعة » وفرق كبير بين هذا وذاك .

السؤال الحادى عشر

(أ) ما حكم التضرع والتوسل بأصحاب الأضرحة ؟!

(ب) وما حكم الاستخدام الشائع لعبارة « مدد » والمدد لله وحده ؟!

الجواب :

مسألة التوسل إلى الله بما يحب ، وبمن يحب ، مسألة قديمة ، تناولتها طبقات من السلف والخلف ، بين الرفض والقبول ، وكما مال إلى الرفض أمثال الشيخ ابن تيمية ، مال إلى القبول أمثال الحافظ ابن حجر ، والإمام الشوكانى ، وبخاصة فى كتابه « الدر النضيد » .

وللإمام الآلوسى فى ذلك تفصيل مفيد .

والإسلام متفق على صحة مبدأ التوسل ، والخلاف كله على اللفظ والكيفية والاتجاه ، والأدلة هنا لا يتسع لها مقال ، وقد سبق أن نشرت لى (التعاون) ما يكفى ، وعليك أن تراجع ما كتبناه فى رسالة « الوسيلة » ففيه التفاصيل الكافية .

والمهم فى هذه المسألة المتشعبة الجوانب ، الفسيحة الرحاب أن يوجَّه الطلب إلى الله وحده ، وأن يكون ذكر المتوسل به - لمن شاء التوسل - نوعًا من تأكيد الطلب ، بالاعتراف بالتقصير والتفريط فى جنب الله ، مما يخجل معه المتوسل أن يكتفى بدعائه ، وهو ليس أهلاً للاستجابة ، فيتشفع إلى الله بما (أو بمن) يغلب على ظنه أنه مقبول عنده فى رجاء ألا يُرَد أو يُرفض .

وما دام الطلب من الله ، وإلى الله ، ابتداء وانتهاء ، كقول القائل : « اللهم إنى أسألك كذا وكذا ، متوسلاً إليك بكذا » فلا خطأ ، ولا شرك على الإطلاق ، وقد ذهب إلى هذا المرحوم الإمام حسن البنا ، واعتبرها من الخلافات الفرعية .

وليس التوسل واجبًا ، وإنما هو اختيار لمن شاء ، على ألاّ يكون الطلب موجهًا إلى العباد ، سواء أحياؤهم أم أمواتهم ، فإذا أخطأ

الجاهل - مع هذا - وطلب من العبد ، فإنه يُعلّم ويرد إلى الصواب ، ويكفيه نيته وحسنُ اعتقاده ، وعلمُه اليقينى - مهما كان أميا جاهلا - بأن الله هو الفعّال ، وإنما العبد وسيلة ، لا يملك مع الله شيئا .

وإذن فلا نخرجه من الإسلام بجرة قلم ، أو انفعال لسان ؛ فإن هذا أمر خطير ، لا يملكه أحد ، وإن كان قد شاع تكفير الناس فى أيامنا هذه بما لا يقبله عقل ولا دين .

أما الأدلة فشتى ، لا يحتملها مقال ، ولا عشر مقالات ، ولكنى أفضّل - كما قلت - أن تقرأ بحثًا كنتُ كتبتُه فى هذا الباب ، وطبعته « مجلة المسلم » فى رسالة خاصة هى رسالة (قضايا الوسيلة والقبور) فلعله أن يفيد بعض الشىء ، إن شاء الله تعالى .

ومسائل الفروع كلها محل خلاف ، حتى حركة الاصبع فى التشهد ، وما وسع غيرنا فهو يسعنا ، ما دام التوحيد مستقرا فى القلوب بحمد الله .

ومن المفيد ، أن تعلم أن التشنج ، والعصبية فى قضية التوسل ، وقضية التصوف ، وقضايا القبور ، وتحقير أهل البيت النبوى ، وأولياء الله ، من أقرب وسائل الثراء المربح ، وسرعة التعاقد على العمل المأمول فى بلاد البترول ! وأيسر وسائل الشهرة ، وبناء العمارات ، وركوب الطائرات ، وحيازة السيارات ... فافهم ... !

(ب) أما قولهم « مدد » : فإن نعمة الإيجاد والإمداد كلتاهما لا تكونان إلا لله ، ومن الله عز وجل ، فالحياة الأولى والآخرة جميعا ، ومحتوى المُلْك ، والملكوت كله ، إنما هو من إيجاده ، وإمداده تعالى . وهو يقول : ﴿ كُلاًّ نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾[1]، وهى آية كاملة شاملة ، ومؤداها فى معنى : ﴿ قل كل من عند الله ﴾[2].

والعبد سبيل أو سبب ، ولكل شىء سبيل وسبب .

فطالب المدد : إن كان يطلبه من شيخ حى ، فهو إنما يريد بالمدد : طلب العلم ، أو الإرشاد ، أو الدعاء ، قلبيًا كان أو نفسيًا ، أو تلقّى

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٠ . (٢) سورة النساء ، الآية : ٧٨ .

السيالات ، والتيارات الروحية من طاقات الشيخ المشحون بأسرار الإيمان ، وقوى التعبد ، والعلاقة بالله .

ولكل مخلوق سيالات وتيارات كهربية ومغناطيسية مؤثرة ، أثبتها العلم القديم والجديد ، واستدل بما فى الإنسان من الشجاعة والمروءة ، والهمة ، ونحوها ، فكلها قوى خفية ، سميناها بالأسماء ، ووصفناها بالأخلاق ، ثم قررها علمُ النفس الحديث ، واتخذ من « الحسد » دليلا على القوى الشريرة فى الإنسان ، وهذا يثبت أن للإنسان - بالمقابلة - قوى خيِّرة ، تؤثر فى الغير بمثل ما قد تؤثر قوى الشر من الحسد فى المحسود ، فكلٌ شىء له مقابل ، هو ضده ، ثم إن التنويم المغناطيسى ، فى أسلوبه العلمى المعترَف به فى كل جامعات العالم ، وكل المحاكم العالمية هو دليل فى هذا الجانب غير مدفوع[1]، وقد قرر الشيخ ابن القيم فى كتابه « الروح » كثيراً من القوى والطاقات الإنسانية فى الأحياء والموتى ، فارجع إليه .

وهذا ، وإن كان يطلب المدد من شيخ متوفى ، فهو يطلب من روحه « التى يعتقد أنها تحيا برزخيا ، فى مقام القرب من الحق » أن تتوجه شفاعةً إلى الله فى شأنه بما يهمه ؛ فالأرواح فى عالمها تحيا حياة غير مقيدة بحدود زمان أو مكان ، فالقيود والحدود نتيجةُ الحياة البشرية ، وأما الأرواح ، فهى من عالم الانطلاق ، ولا شك أن هذا الجانب كله مَزلق من أخطر المزالق ، ولا يقوى على فهمه وضبطه إلاّ أولو الألباب ، ومن ثم وجب تبصير الناس ، أو سد الذرائع .

وليس معنى هذا أننى أجيز الحالات الهستيرية التى نشاهدها فى كثير من التجمعات المنسوبة إلى التصوف ، وإنما أردت أن أبين علة الموضوع وإسناده عند أهل العلم . ولكلٌ حَقٍ باطلٌ يشبهه ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور .

(جـ) أما ما يحيط بالموالد من منكرات ، جعلتها مجالاً خصبًا

---

(١) راجع كتاب « سبيل السعادة » للمرحوم الشيخ يوسف الدجوى ، وكتاب «على أطلال المذهب المادى » للمرحوم محمد فريد وجدى .

المرتزقة والنصابين ، فقد قررنا أن الموالد بوضعها الحالى ، فيها المشروع والممنوع ، وقد أصبح الممنوع فيها غالبا على المشروع للأسف الشديد ، فمثلا : قراءة القرآن ، ومجالس العبادة ، وحلق العلم ، وانتشار الصدقات ، وما يكون بين الناس من التعارف ، والتآلف ، والتعاطف ، ورواج الحركة التجارية ، والتلاقى على الله بحسن النية وصفاء القلب ، ووفرة الجو الاجتماعى المحبَّب شرعًا وطبعًا ، كل ذلك « حركة فيها بركة » لا ينكرها عقل ، ولا دين ، والإسلام دين التجميع والتكتيل ، ومعنا جماعات الصلوات ، والجُمَع ، والعيدين ، فضلاً عن اعتبار الموالد نوعا من الفرح بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا .

ولكن بجوار هذا شر موبق : عبادة محرفة ، وتجمعات منكرة ، ولصوصية أعراض ، ولصوصية أموال ، ومراتع فسوق ، وبؤرات ميسر ، ومستنقعات تخريف ، وتحريف ، وشعوذة ، وتفاخر ، وتكاثر بالأتباع والأموال ، والمظاهر . وضياعٌ أىّ ضياع للأموال والأوقات والأخلاق والطاعات !!

إن هذه الموالد يمكن أن تصبح أسواقا للثقافة الربانية . ومنابر للدعوة الوطنية والإسلامية ، ومناسبات للخير العام والخاص ، لا يمكن أن تضارعها فيه أية تجمعات مصنوعة ، مهما استقطبت من المغريات ، وليس هذا فى يد أحد سوى الحكومة أولاً ، فيما لها من الإشراف عليه ، ثم فى يد مشيخة الطرق الصوفية ، فيما لها من الإشراف عليه ، إذا صح العزم ، وصح الحزم ، على التغيير ، وطُرحت المجاملات ، وصدقت المواجهات .

أما والحال على هذا المنوال ، فخسارة ووبال . وليس بعد الحق إلاّ الضلال .

إن الكلام عن الموالد فى جوانبها المختلفة تاريخيًا وشرعيًا ، كلام طويل ، وتستطيع أن ترجع إلى بعضه فى بعض نشرات العشيرة ومجلتها ، وفيما قدّمناه هنا آنفا كفاية .

* * *

السؤال الثانى عشر

ما حكم المواكب الصوفية ؟

وما يكون فيها من الرقص ؟ والدفوف ؟ والصاجات ؟ والأعلام ؟ والأزياء الشاذة ؟ والأوشحة ؟ والعمائم الملونة ؟

الجواب :

أما الطبل · والزمر · والرقص · وما يليه من الدفوف والصاجات ، فقد أوضحنا - فيما قدمنا - حكم تحريمه باتفاق كعبادة ؛ فهو لهو وباطل، وعبثٌ ليس من الدين ، ولا هو من شأن الرِّجال[1] .

أما نفس المواكب : فقد كان أول موكب انعقد فى الإسلام يوم أذن الله بإعلان هذا الدين الخاتَم ، فخرج المسلمون فى صفين على رأس أحدهما : عمر بن الخطاب،وعلى رأس الآخر : حمزة بن عبد المطلب ، واخترق هذا الموكب شِعابَ مكةَ وثنِيَّاتهَا ، يعلن بالتهليل والتكبير ·

ثم جاءت مواكب المجموعات فى المدينة تعلن بالتكبير ليالى الأعياد والجماعات ، التى تعلن بالتلبية فى الحج · ثم جاءت السرايا والبعوث ، تأخذ وجهتها فى الدعوة إلى الله ، كلما علوا شرفًا ، أو هبطوا سهلا ، هللوا وكبروا ، فكان هذا جميعا أصل « المسيرات » والمواكب الصوفية السليمة ·

أما الأعلام : فقد وُجدت فى مسيرات الجيوش ،فى الصدر الأول ، حتى إذا غزا (لويس التاسع) دمياط ، ودعا الإمام الصوفى العظيم « الشيخ أبو الحسن الشاذلى » الناس إلى الجهاد ، بعد أن كَفَّ بَصَرُهُ · ودقت طبول الحرب بين يديه ، وسارع إلى موكبه كبار أئمة الدين فى عصره ، ومنهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، وإمام المحدِّثين الشيخ زكى الدين المنذرى « صاحب الترغيب والترهيب » ، ومكين الدين ، وابن دقيق العيد ، ورجاله من الصعيد · وابن الصلاح إمام علماء الأصول ، وغيرهم من الخاصة ، فضلا عن الجماهير الهائلة ·

---

(١) راجع ما قررناه آنفا ·

وكان قد أثار خروجُ أبي الحسن (وهو مكفوف) حماس الناس وغيرتهم ، فتابعه الآلافُ يخرجون إلى كفاح الفرنسيس بأموالهم وأنفسهم ، وقد اتخذت كل بلدة أو أسرة رايةً لها ، تُعرف بها ، ويتجمع تحتها رجالها ، حتى إذا نصر الله المسلمين ، وأُسر « لويس ورجاله » ، وحبس فى دار ابن لقمان (الصوفى) بالمنصورة[1] وعادت الجموع وهى تحتفظ براياتها تيمنا وتفاؤلا : تذكاراً لتاريخ شريف .

ثم ورث بعض المتصوِّفة هذه الأعلام من أسرهم ، وأقاربهم ، وبلادهم ، واتخذها شعاراً . وحوَّلها من حقيقة إلى تمثيل ، وفلسفوها ، فأدخلوا إشارة فى مجال مجاهدة النفوس ، ولست أرى هذا الرأى ولا أسيغه ، وخصوصًا بعد هبوط مستواه إلى ما ترى فى المدن والقرى ، ومن الناس .

(جـ) **أما الأزياء الشاذة** : فمدسوسة على أهل الله . ولم يُعرف ولىٌّ لله كان له زى غير مألوف : فهى أثواب شهرة . « ومن لبس ثوب شهرة شهر الله به » كما جاء فى الحديث الشريف[2]. والصوفية الأبرار أبعد عن هذا الصغار . وأما أن عمر رضي الله عنه لبس المرقَّعَةَ ، فلم يلبسها للغاية التى يلبسها من أجلها هؤلاء المحترفون .

(د) **أما الأوشحة** : فقد سألتُ يوما رجلاً صالحا يحمل على صدره وشاحًا كتبوا عليه اسم الطريقة ، **قلت له** : يا أخى ، ان كنت تلبس هذا الوشاح ليعرفك الله ؛ فالله أعرف بك منك ، وإن كنت تلبسه ليعرفك الناس فأنت مُراء ، على شفا حفرة من الشرك بالله !

فإذا بالرجل يخلع وشاحه وهو يقول : أنقذتنى أنقذك الله من السوء ، فيا ليت قومى يعلمون بهذا ؛ فإنه خطير وفيه رياء كثير .

(هـ) **أما العمائم الملونة** : فلم يثبت أن رسول الله ﷺ لبس منها مع البيضاء إلا السوداء فى يومى « أحد ، وحنين » حين هُزِم المسلمون ،

---

(١) لازالت دار ابن لقمان موجودة بالمنصورة ،وقد حولت إلى متحف معروف .

(٢) وفى حديث آخر : « من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله ، ثم يلهب فيه النار » رواه أبو داود ، وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وأذاع الشياطين أن رسول الله قد قتل ، تخذيلاً لجماعة المسلمين ، فلبس رسول الله ﷺ هذا اللون لفتًا للأنظار ، وتكذيبًا لدعوى المشركين ، وإذن فقد لبسها لسبب معين ، فى وقت معين . كما قرره أهل العلم . ثم لبسها (الشيعة) حزنًا على استشهاد الحسين ، كما لبسها العباسيون لأمر ما .

أما القول بأن : الصفراء كانت علامة الملائكة يوم بدر ، فلا دليل من العلم عليه .

وأكثر ما روى عن رسول الله ﷺ : إنما كانت عمامته بيضاء كالغمامة ، وكل ما جاء فى ألوان العمائم،فحديث واه شديد الضعف ، أو حديث موضوع ، وكلاهما لا يؤخذ به . وخصوصا من الصوفية : فإنهم يجعلون خلاف الأولى ، فى رتبة الحرام .

غير أنه ثبت أن الصحابى الجليل (أبا دجانة) كانت له عصابة حمراء ، سمّاها (عصابة الموت) كان يلبسها إذا غامر فى صفوف الأعداء . فسئل فقال : حتى يعرفنى بها المسلمون ، إذا شرّفنى اللهُ بالشهادة ،فقد لبسها لسبب غير الشهرة والترفع والزهو على خلق الله ، وقد كره رسول الله ﷺ الثوب الأحمر غير المخطط .

أما العمامة الخضراء فقد أحدثها السلطان (شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون) أيام حكم المماليك . وخصّ بها آل البيت لبعض الأسباب ، كما نقله العدوى فى (مشارق الأنوار)،والشبلنجى فى (نور الأبصار) ، على أن للعلماء فيها رأيا مضادا .

فإذا لبس الناس عمائمهم الملونة على أنها « عادة » فلعله لا يكون بها بأس .

أما إذا لبسوها تعبداً ، أو تمذهبًا ، فلن يكون معهم كتاب ولا سنة ثابتة ؛ لأنها إما أن تكون تعصبًا للمذهب ، والنبى ﷺ يقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية »[1].

---

(١) ومن نصوص الحديث : قوله ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » رواه أبو داود .

وإما أن تكون تزكية للنفس ، وإعلانا عن الشرف : والله يقول : ﴿ لا تزكوا أنفسكم ﴾[1] ، وإما أن تكون تعبدًا . وإنما يُعبد الله بما شرع .

وإما أن تكون تبركاً ، ولا تكون البركة إلا فيما أذن فيه الله ورسوله : ﴿ ومَن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ﴾[2] فليكن إذن لبسها على سبيل العادة ، خروجًا من الحرج ، لمن يشاء ، إذا ضمن ألاّ يجرّه لبسُها إلى الرياء والتعالي والسمعة وغضب الله ورسوله .

* * *

السؤال الثالث عشر

ما حكم الاعتقاد في قدرة بعض الأشياخ على الاطِّلاع على الغيب ؟ وقد نفى القرآن عن الرسول ﷺ نفسه علمه بالغيب ؟

الجواب :

هذا الباب مما لا ينبغي فيه التعميم المبهم ؛ فإن الغيب نوعان :

١ - غيب حقيقي .

٢ - وغيب مجازي .

* * *

فالغيب الحقيقي : ما كان في مكنون العلم الإلهي ، لا يحيط به إلا الله وحده .

أما الغيب المجازي : فما قد كشف الله عنه لمن شاء من خلقه ، فهو العلم الذي تنزل به الملائكة والروحُ بإذن ربهم من كل أمر ، وبخاصة حين - يُفرَق - في ليلة القدر - كل أمر حكيم - (ومن معاني الفرق : الكشف ، والإظهار ، والبيان) .

ومما يدخل في الغيب المجازي : ما يكون من الأحداث الكونية التي تقع في منطقة ما ، فيراها ، أو يعرفها من هم حولها ، ولا يراها ولا يعرفها الآخرونَ .

فالغيب الحقيقي : لله وحده ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[1].

وقد يتفضل الله على بعض رسله فيحيطهم علمًا بما يشاء من علمه ؛ تأييدًا لهم ، وتعجيزًا لخصمهم ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد ، إلا من ارتضى من رسول ﴾[2] ، كما كان عيسى عليه السلام ينبيء الناس بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم[3] ، وكما حدثنا رسول الله ﷺ - في

---

(١) سورة : الأنعام ، الآية : ٥٩ .

(٢) سورة الجن ، الآية : ٢٧ .

(٣) راجع الآية رقم ٤٩ من سورة : آل عمران .

أعلام نبوته - عن وقائع وأحداث جاءت فى حياته وبعد مماته ، كما حدَّث بها بكل تحديد .

وهناك نفر من أهل الله - ولله أهلون من عباده ، كما صح فى الحديث الكريم[1] - فربما أفاض الله على بعضهم ببعض الغيب الحقيقى أو المجازى ، فضلاً منه ونعمة ، كما قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾[2] أى أن هؤلاء يحيطهم الله بشىء من علمه شاءه لهم ، وهم ليسوا برسل ولا أنبياء .

ومعنى كل هذا : أن الله تعالى يتعطف على بعض الخواص من عباده بما يشاء من بحر علمه ، فلا أحد يستطيع أن يحيط بشىء من علم الله بقدرته بشخصيته أو إرادته ، إلا أن يشاء الله ! وهو قوله تعالى - على لسان نبيه ﷺ : ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير ، وما مسَّنى السوء ﴾[3] أى فلا أعلم إلا ما علَّمنى ربى ، وما كشف عنه لى ، ومن هذا الوجه أيضا قوله تعالى : ﴿ وعلَّمناه مِنْ لَدُنَّا علْما ﴾[4] وقوله على لسان يوسف ﷺ فى تأويله الرؤيا: ﴿ ذلكما مما علَّمنى ربى﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ وعلَّمك ما لم تكن تعلم ﴾[6] . . . الخ .

كل هذا فى الغيب الحقيقى .

أما المجازى : وهو ما خرج من نطاق المكنون الربانى ، فلا يمتنع أن تكون هناك وسائل للإحاطة به .

وقد فصَّل الإمام الألوسى هذا الجانب تفصيلا مفيداً حاسمًا .

وقد يكون من هذه الوسائل : صفاء النفوس بطول ملازمة العبادة والاستغراق فيها ، وعدم الانشغال بغير الله - شأن أولياء الله الصالحين .

---

(١) الذى رواه الأئمة : أحمد والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم عن سيدنا أنس ﷺ « إن لله أهلين من الناس» . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » .

(٢) آية الكرسى .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٨ .

(٤) سورة الكهف ، الآية : ٦٥

(٥) سورة يوسف ﷺ ، الآية : ٣٧ .

(٦) سورة النساء ، الآية : ١١٣ .

وقد يكون من هذه الوسائل ما هو آلى فلسفى ، كالذى نراه فى فقراء الهنود .

وقد يكون من هذه الوسائل استخدام الشياطين ، كما جاء فى الصحيح : « إن الشياطين يذهبون فى العنان فيخطفون الكلمة من المَلَك ، فيقرّونها فى آذان الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة »[1].

وقد يكون من هذه الوسائل تطوُّع بعض صالحى الجن ، بما لا بأس به مع بعض الصالحين من الإنس . وقد يكون بأسباب أخرى كثيرة جدا ؛ فالأمر متشابه متشعِّب دقيق ، لا تحكمه العواطف المنفعلة

وبين أيدينا من التجارب الواقعية ما يغطى كل هذه الأنواع وغيرها ، مما لم نُشِر إليه ، وهو كثير .

وهذه الأصول كلها يجب أن يستنبطها مَن يتصدَّى للحكم على الغيب ؛ فإن فتنة تعميم الأحكام ، والتهويل والإيهام ، كثيراً ما تخرج بطرفَيِ القضية عن المنهج العلمى ، أو العلم المنهجى ، فلا يتحقق إنصافٌ ، ولا يُنصَف تحقيق .

* * *

---

(١) وروى البخارى أن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى فى السماء - فيسترق الشيطان السمع فيسمعه ، فيوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » راجع الزواجر لابن حجر

السؤال الرابع عشر

(س) ادِّعاء العصمة للأشياخ ؟

الجواب :

العصمة للأنبياء وحدهم ، أما غيرهم ، فلو صحَّت لهم العصمة لكانوا أنبياء ، ولا نبوة بعد سيدنا المصطفى ﷺ ، ولم يقل بالعصمة لبشر بعد النبى إلا (الشيعة) الذين أعطوا أئمتهم هذا الحق بأدلة قبلوها هم ، وليس فى الصوفية الراشدين من يقول هذا القول فى شيخ له ، « ولا عبرة بالمتصوفة ولا المستصوفة » .

لكنهم نقلوا عن أبى الحسن الشاذلى قوله : « إن الله يتفضل على وليه « بالحفظ » كما يتفضل على نبيه (بالعصمة) » والفرق بين الحفظ والعصمة ، فسيحُ الأبعاد .

وحسبكَ أنَّ العصمة هبةٌ ومنحة ، والحفظ كسب وأثر للاجتهاد والاحتياط والورع ﴿ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ﴾ . وقد قررنا أن المتطرفين والغلاة موجودون فى كل مذهب ودين ، وبغيُهم على أنفسهم ، لا على المذهب ، ولا على الدين .

كما قررنا أن الغلاة وُجِدوا فى عهد رسول الله ﷺ ، فردَّهم وأمرهم بالتشبه به .

* * *

السؤال الخامس عشر

(س) ما حكم توارث المشيخة فى أبناء الأسرة الواحدة ؟

الجواب .

اذا وُجِد فى الأسرة من هو أهل لحمل عبء الدعوة ، فلا شك أنه أحق وأولى من كل الوجوه ، وفى القرآن أن الله فضَّل آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾[1] ومن ثم كان سيدنا إبراهيم أباً لجميع الأنبياء ، أى أن الأنبياء جميعًا كانوا من أسرة واحدة ، فلا اعتراض من جهة الشرع أو العقل على ذلك ، ما دام يحمل الأمانة مَن هو أهل لها ،وقد ورث سليمانُ داود، واستورز موسى أخاه هارون ، ودعا زكريا ربّه : ﴿ هب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾[2] .

وفى الصحيح يقول ﷺ : « مَن كنتُ مولاه فعلى مولاه »[3] .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ .

أما إذا فقد شرط الصلاحية والكفاية ، كان ذلك إقطاعا بشريا ، لا يعرفه دين الله ، ولا يقبله نظام الانضباط الاجتماعى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ، ولا يتساءلون ﴾ ثم نذكو هنا نوحًا وابنه ، وفرعون وامرأته .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة مريم (عليها السلام) ، الآية : ٥ ، ٦ .

(٣) رواه الإمامان : أحمد ، وابن ماجه .

وروى الأئمة أحمد والنسائى والحاكم : « من كنتُ وليه فعلىّ وليه »

السؤال السادس عشر

(س) تعيين ولى الله بالاسم ؟ مع أن الولاية سر بين العبد وربه ؟

الجواب :

سبق أن قررنا أن للولاية « مواصفات ، وعلامات » ، فمن تحققت فيه هذه العلامات ، فهو ولى لله ، بالنص القرآنى ﴿ الا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[1] وفى الآية ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾[2] فإذا تحصلت الولاية - وللإيمان والتقوى والصلاحية إشارات وعلائم ، ولها روائح وملامح معروفة بين الناس · فإذا ما تحققت - أطلق الله ألسنة خلقه بحسن الذكر ، وطيب السمعة ، وإفاضة البركة ، وفى الحديث المشهور : « إن الله اذا أحب عبداً نادى جبريل إنى أحب فلانا فأحبَّه ، ثم يُكتب له القبول فى الأرض والسماء »[3]، فالولاية وظيفة إلهية فى الأصل ، فإذا تسنى أن يعرف الناس صاحبها ، وأطلقوا عليه مقتضى وظيفته ،فلا أظن أن بذلك بأسا ، على أنَّ من أولياء الله من هو مستور مغمور ، على قدم العبد الصالح صاحب موسى عند مجمع البحرين ، والعبد الصالح أويس القرنى ؛ فأولياء الله نماذج للإنسانية الكاملة ؛ لأنهم الممثلون الشخصيون للحضرة النبوية فيما ندبهم الله إليه ·

ويجب أن يكون مفهومًا : أن الولاية شىء ، والبلاهة شىء آخر ·

فمن شروط الولاية : تمام العقل ، والفقه بدين الله ·

أما الأبله : فلا نعتقده ، ولا ننتقده ·

أما إطلاق الولىّ على من ميَّز نفسه بملبس خاص ، ووضع خاص ، وأسلوب حياة خاصة ، ولم يتحقق فيه أوصاف الآيات : فطوى الناس تحت لواء الشعوذة والتهريج ، والدعوى ، واختلاق الكرامات ،

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦ · (٢) سورة : الأعراف ، الآية : ١٩٦ ·

(٣) رواه البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة ﷺ ورواه الترمذى عنه أيضا ·

والخوارق ، فذلك ولى الشيطان وحزبه ، فلا يفلح حيث أتى ، وإن اجتمع عليه الثقلان ، فإنما هو حينئذ من طلائع المسيخ الدجال . وكثير ما هم ، وكثير أتباعهم .

ثم تأمل : هل احدٌ أكثر أتباعا من أبليس ؟

فكثرة الأتباع لا تدل على حقيقة الولاية ، بل قد تكون نوعا من الفتنة والابتلاء الإلهى

* * *

السؤال السابع عشر

(س) ما هو القول فى شفاعة الأولياء لأتباعهم ؟ وحضورهم عند سؤالهم ؟

الجواب :

شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض يوم القيامة أمر لا خلاف عليه بين المسلمين ، وإذ ثبتت الشفاعة لمجرد الأخوّة فى الإسلام ، فلعلها تكون أثبت إذا اجتمع مع الأخوّة فى الإسلام أخوةٌ أخصّ منها فى الله ، فلا يُستبعد أبداً أن يشفع مؤمن فى مؤمن بإذن الله ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾(1) .

لكن من غير المقبول أن يشيع بين بعض الطوائف أن شيخهم يحضرهم عند السـؤال فى القبر ، وقد دسّوا مثل هذا الهراء فى تاريخ (أبى الحسن الشاذلى) وهو منه براء ، كما دسوه فى تاريخ بعض أئمة الصوفية الآخرين ، وهو مخالف للعقل ، والتاريخ الصحيح ، والنقل جميعاً .

ولقد كان رسول الله ﷺ أوْلى بذلك مع أصحابه .

سألتُ أحدهم : لو أن عشرةً (مثلاً) من أتباع الشيخ فى عدة بلاد أو دول متباعدة ، أو حتى فى بلدة واحدة ، وقد ماتوا جميعا فى وقت واحد ، وهم يُسألون فى وقت واحد ، فمع من يكون الشيخ يا ترى ؟

أم أن الملائكة تنتظر حضور الشيخ حتى يفرغ من وجوده مع الآخرين ؟؟ (فعبس وبسر . ثم أدبر واستكبر) .

ثم ما هو الدليل من كتاب الله وسنة مصطفاه ﷺ ؟

لا دليل . ولا استئناس ، ولا نظر ، ولا استصحاب بالمرة .

---

(1) آية الكرسى .

وإن من علمائنا من يرى فى تصديق ذلك مزلقا إلى الوثنية ·

ولعل من أشد ما يتألم له المرء أن يأخذ بعض الصالحين هذه القضايا الدخيلة على التصوف بحسن النية ، ويرددوها على أنها حقائق ، لأنها وُجدت مطبوعة فى بعض الكتب ، وقد دسها من دسها على الشيوخ ، بلؤم وخبث نية ·

إن بعض الكتب المطبوعة تقول : (إن الله ثالث ثلاثة) فهل نأخذ بهذا الشرك ، لأنه مطبوع فى كتاب ؟؟!

فاعتبروا يا أولى الألباب ·

* * *

السؤال الثامن عشر

(س) لماذا الاهتمام بصناديق النذور بحيث يندر أن نجد ضريحًا كبيراً ليس به صندوق نذور ؟

الجواب :

النذر فى ذاته مشروع ، وإن كان لا يردّ قضاء .

فالله يقول : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾[1]، ومدح قومًا فقال : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرا ﴾[2]، ويقول : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه ﴾[3] ، وقال ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليُطعه ، ومن نذر أن يعصَى الله فلا يعصه »[4].

والنذر قديم فى الشرائع السابقة كما جاء عن مريم وأمها فى سورة (آل عمران)[5].

والنذرُ أصلاً للّه و (مَن نذر لغير الله فقد أشرك) يعنى عمل عمل أهل الشرك ، وإن لَم يخرج من الملة ، فإذا اتضح هذا التأصيل ، كان لا بأس بأن تُجمع النذور بطريقة واعية ، لِتُصرف على أهلها ، وعلى وجوه الخير ، التى تعود على المسلمين بالأهدى والأجدى ، وتعود على من كان سببًا فيها ، وعلى فاعلها بالأجر والمثوبة .

(س) لكن هل أسلوب جمع النذور وتحصيلها ، وصرفها الآن يتناسق مع المقصود منها ؟

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٧ .

(٣) سورة سبأ ، الآية : ٣٩ .

(٤) رواه الإمام أحمد ، والبخارى ، والأربعة : مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

(٥) وهو قوله تعالى عن أم السيدة مريم عليها السلام أنها قالت : ﴿ إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً ﴾ ، وقول مريم عليها السلام : ﴿ إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ .

الجواب :

هذا تُسأل عنه الدولة ، فلوائح صناديق النذور تكاد تحصر حصيلتها في كبار موظفي المساجد ، وأعضاء لجان الحصر ، إلا ما عسى أن يزيد من مقررات أولئك جميعا ، فهو يعود إلى وزارة الأوقاف ، وليس كذلك مراد الناذر ، ولا مراد الشارع ، ولا مراد رجل الشارع ، بل يتعين وضع النذر في موضعه الصحيح ! .

وعندما يكون الناذر جاهلا ، فيقول مثلا : هـذا النذر للسيد البدوى ، أو السيدة زينب ، أو غيرهما ،فعلينا أن نُعَلِّمه أن يقول : « النذر لله ، وثوابه للبدوى أو السيدة » أو نحو ذلك،ولا نرميه بكفر ولا شرك ؛ فمراده صحيح ، وتعبيره خطأ .

ولنتذكر أن سيدنا (سعدا) رضي الله عنه عندما حفر بئره المعروفة ، قال : (هذه لأم سعد) ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ؛ لصحة قصده .

وانتظام هذا التعبير مع علوم اللغة العربية سليم ؛ فهـو في اللغة على حذف مضاف تقديره (هذه لرب أم سعد) ، فالقائل (هذا للسيد البدوى ، أو للسيدة ، أو للحسين) يريد أنه (نذر لرب السيد ، أو السيدة ، أو الحسين) وإن لم ينطق بلسانه ، كما حدث تماما من سعد بن أبي وقاص ، وإنما الأعمال بالنيات ، لا بالكلمات .

كلمة أخيرة : لقد أتعبتني يا كمال[1] يا ولدي - وطوَّفت بي هنا وهناك ، وقد طاوعتك رجاءَ تصحيح بعض المفاهيم لوجه الله . وقد أجبت (بغاية الاختصار) على ما سألت من أسئلة ، بعضها يحتاج إلى سعة كبرى في الوقت والبيان ، والدليل والتعليل ، وقد أكون مصيبا أو مخطئا في حكم أو في أحكام وما أبرِّئ نفسي ، ولا أزكى على الله أحدا ، وهذا شأن البشرية ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[2] ، وأنا أسجل رأيي ، ولا أحمل أحدًا عليه ، كما لا

---

(١) الأستاذ « كمال فرغلى » الصحافى المعروف بجريدة التعاون .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

أقبل ان يحملنى أحد على رأيه ؛ فهذه فروع اجتهادية ، تختلف فيها الأنظار والأفكار · وستبقى كذلك إلى يوم القيامة ، وليس على الأرض من يسجل قولاً وهو يظن أنه يدخل النار به ·

فأسأل الله أن يجعل لى ما كسبتُ من صواب ، وأن يغفر لى ما اكتسبت من خطأ ، هو قطعًا غير مقصود ، وهو الغفور الودود ·

وبهذا أكون قد أجبتُ على أهم ما سألتَ ، مما ينفع الناس ويمكث فى الأرض إن شاء الله ، ومنه يظهر بكل الوضوح : أنه ليس هناك خلاف بين الصوفية وبين غيرهم من أهل السنة ، إلا فى بعض صور الفهم ، وتحليل المضامين التى جعلت الصوفية يهتمون بالقلوب والتربية والأخلاق، والاعتصام بمقامات التسامى والربانية؛ فالتصوف مذهب إسلامى أصيل ، من مذاهب أهل السنة التى لا بد منها للحياة الصحيحة ·

وإذا كان الصوفية يدعون إلى الأخلاق وبناء داخل الانسان بعد أن تهدم وتحطم ، فهم إنما يعملون غاية ما يجب على الإنسان لاستعمار الأرض والاستخلاف عليها ، وتنقية الحضارة من أوزارها وأوضارها ، واستقرار الأمة بأفرادها على ما لو لم يكن لهلكت ، وها نحن قد جربنا ، وضرب الله الأمثال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، ونستغفر الله ونتوب إليه ·



الباب الثاني

أسئلة جريدة الأهرام
سألها الأستاذ الكاتب الإسلامى المعروف
الأستاذ « سامي دياب » قال :

السؤال الأول

يقولون : إن التصوف استقى نظرياته فى الحلول ، والاتحاد ، والوحدة ، وحكمة الإشراق ، وكل هذا من مبادىء الشيعة الرافضة ، والإسماعيلية ، ومصادر أخرى أجنبية ، كالعقيدة الفارسية ، والمذاهب الهندية ، والنصرانية ، فابتعد التصوف بذلك عن تعاليم الإسلام .

الجواب :

للناس أن يقولوا ما يشاءون ، ما دام لا يربطهم عِلمٌ منصف ، ولا خُلق عاصم ، ومن البدهيات ، أن التصوف الإسلامى فى ذاته شىء ، وما اندس فيه أو أدخل عليه شىء آخر ، والحكم على الشىء بما اندس فيه : حكم على المدسوس ، لا على الشىء نفسه ، وما أضرَّ العلمَ إلا أساليب التعميم والتهويل ، والعصبية للرأى بلا تحفُّظ ولا احتياط .

إن التصوف الإسلامى هو : روح الكتاب والسنة ، قولاً وحداً . أقر به كافة أئمة الصوفية ، من السلف والخلف ، وأقرَّ به المنصفون من الأجانب ، الذين تحدَّثوا عن التصوف ، وقد عرّفوا التصوف بعشرات التعريفات ، التى تدور كلها فى هذا المجال ، باختلاف منازل الرجال ومواقف السلوك ، فإذا اندس على هؤلاء السادة ما ليس لهم به علم ، فقد اندس من قبل فى كتب الفقه ، والتوحيد ، والسيرة النبوية ، بل فى كتب الحديث الشريف ، والتفسير ، ما لا قبل لهذه العلوم به ، ولكن الله ندب من أهل العلم من ميزوا الخبيث من الطيب ، فلم يترك الناس الفقه ، ولا التوحيد ، ولا التفسير ، ولا السيرة ، من أجل الدخيل ، أو الدسيس ، فما أخذ علماء هذه المواد بما مزجه الوضّاعون فى علومهم ، ولا تركوا سنة الحبيب ﷺ من أجل آلاف الموضوعات والأكاذيب التى تسربت إليها .

وكذلك بقية علوم الدين .

لقد حاولوا أن يدسّوا على كتاب الله ما ليس منه ، والنبى حى ،

والوحى ينزل ، وما قصة الغرانيق بمجهولة عند طلبة علوم الدين (على ما قيل فى سندها أو تأويلها) .

وهكذا يكون من العجيب ، أن يحاسَب الصوفية على جريمة غيرهم ؛ أن يؤخذوا بخطأ لم يرتكبوه ، بل هم قد نبهوا عليه ، وحذروا منه ، وراجع إن شئت ما كتبه (ابن الحاج) وهو من خاصة الصوفية فى كتابه (مدخل الشرع الشريف) وراجع بإمعان شرحَ الإمام السلفى المعروف « الشيخ ابن القيم الجوزى » على كتاب إمام الصوفية الكبير « الشيخ الهروى » ﷺ جميعا ، ثم ما كتبه الإمام « الأخضرى » فى أرجوزته الصوفية الكبيرة من متأخرى الصوفية ، وما كتبه أخيراً الشيخ حسنين الحصافى ، ومن قبله الشيخ أبو عليان الشاذلى ، ثم الشيخ إبراهيم الخليل بن على الشاذلى ، ثم الشيخ عمران الشاذلى ، ثم المرحوم الشيخ محمود خطاب السبكى مؤسس الجمعية الشرعية ، وهو من كبار أقطاب الصوفية باعترافه المكرر فى كتبه ، وبطريقته المفصّلة فى رسالته المسماه « العهد الوثيق »[1] وإن كره الكارهون .

ثم ما كتبه الشيخ (حسن البنا) الذى مزج دعوته بالتصوف الراشد مزجًا كان السبب الأول فى نجاحها وانتشارها ، ومن قبل هؤلاء كتب « محمد عبده » خير ما يُكتب عن التصوف المستنير ، شأن كل منصف يريد وجه الله .

ولا يُقبل الاحتجاج بأمثال الحلاج ، وابن عربى والجيلى ، ومن حذا حذوهم ، ممن نقلوا التصوف من العمل إلى المنطق والتنظير ، فليس هؤلاء هم كل الصوفية ، فهم لم يزيدوا عن عدد الأصابع - عند التسليم بأنهم شطحوا ، أو تطرّفوا ، أو تغالوا ، أو حتى انحرفوا - وهم بشر ، اجتهدوا ، وما كتبوه قابلٌ للتأويل ، وحُسن التوجيه عند المنصفين ، فهو ليس للعامة ، وأمرهم فيه إلى الله من قبل ومن بعد .

ومن الظلم الشائن أن يقف الناقدون عند هؤلاء ، وينسوا أمثال الجنيد ، والقشيرى ، والسلمى ، وابن زروق ، وابن عطاء الله

---

(١) طبعت العشيرة (العهد الوثيق) للشيخ خطاب . ووزعتها بالمجان .

وأبى طالب المكى ، والهروى والسهروردى ، والغزالى ، والسيوطى ، والسنوسى ، والدردير ، وأمثالهم ، سلفًا وخلفًا ، وهؤلاء أيضًا بشر لهم خطأ وصواب .

ولكنهم من باب غير الباب .

إن التصوف هو : « التقوى » وهو « التزكية » قولاً ، وعملاً ، وحالاً : حقيقةً ، ومثالاً ، وسيلةً ، وغاية ، فعلاً وأثرا ، فما لم يكن كذلك ، فليس من التصوف ، ووزره على صاحبه وحده ، وكما لا يتحمل المسلمون أوزار المنحرفين من أهل القبلة ، فليس من الدين ولا من الخلق أن يتحمل الصوفية الشرعيون أوضار من سبقوهم بالانتساب إلى التصوف ؛ فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم إنه لم يعد بيننا اليوم من يفهم رموزهم ، أو يقول بأقوالهم ، أو يعتقد عقيدتهم - إن صح كل ما قيل عنهم - ولا تنس كيف دسّوا على الشعرانى فى حياته ، كما سجله فى كتبه ، فكيف بعد مماته ! .

التصوف - يا ولدى - هو ربانية الإسلام ، هو : الصفاء ، هو : بركة السماء ، هو : الحب : حب الله ، من حبّه ينبثق حبُّ أحبابه ، وحبُّ ما من أجله خُلِق الإنسان .

* * *

السؤال الثانى

عندما يُلغز الصوفية فى أشعارهم وأناشيدهم بلفظ (ليلى ، والكأس ، والخمر) ونحو ذلك تعبيراً عن مواجيدهم ، ألا ترى فى ذلك نوعا من تسرب الطبيعة المكبوتة ، وجهراً بها ؟

الجواب :

اختار بعض الصوفية الإلغاز والإشارة والتحجية باستعمال المجاز والكناية ، والاستعارات ، والرموز اللغوية ، تعبيراً عن أذواقهم ، ومواجيدهم ، وأشواقهم . حتى اختصوا بذلك وعُرفوا بأهل الإشارة ، لأسباب عدة منها :

(أ) عدم مساعفة الألفاظ والعبارات المألوفة لتصوير مداركهم ومشاعرهم ؛ فكان اللجوء إلى الإشارة والرمز ضرورة ، لقربها من حسن عرض المشاعر والأحاسيس ، وتصويرها ، والتعبير عنها .

ثم إن لكل علم مصطلحًا مستحدثًا ، وهذا اصطلاحهم الخاص بهم ، فلماذا يؤاخَذون على أنهم استقلّوا بنوع من الاصطلاح ، ولا يؤاخَذ بقية أصحاب العلوم والفنون والحرف وغيرها ؟! .

(ب) ومنها ظروف البيئة ، وفسادها بالتسلط والبطش ، والقهر ، والعدوان ، واضطراب الرأى ، ثم الرغبة فى إثبات الكيان الذاتى ، والشخصية المستقلة للدعوة ، والحرص على عدم تميُّع خصائصها ، والتلويح بأنها طريق الخاصة فى محاولة لإنقاذ الأمة ، مما دهاها ، وتقويم ما اعوج منها عندما استشرى الفساد ، وتحكَّم السوطُ والسيف فى الرقاب ولم يبق للحرية أثر .

(جـ) وخصوصًا بعد أن قام أول تجمع للصوفية فى العهد الأول ، كثورة على الترف ، والاستعجام ، والانحلال الذى غزا البيوت والأسواق . وحافظت عليه الطبقة « البرجوازية » كما نسميهم الآن ، ومن ثَمَّ تعرَّض كل ناقد أو منذر « فى الله » إلى ما لا يخطر بالبال

من العدوان عليه ، والمكر به ، والتدبير له ، والبطش بأعوانه ، شأن عصور الدكتاتورية والقهر فى كل أمة حتى اليوم .

(د) لهذا ولغيره ، عدل الصوفية فى كثير من أشعارهم وأناشيدهم وأحاديثهم إلى الرمز والإشارة ، واستعمال المجاز والاستعارة ، وربما إلى ما يشبه الإلغاز والتحجية .

اما فكرة الكبت والتنفيس ، والتصعيد ، تطبيقًا لنظرية « فرويد » فقد أثبت زملاء وتلاميذ هذا الفرويد اليهودى المنحلّ أنها نظرية غير مُطَّرِدة ، ولا غالبة ، وقرَّروا جميعًا أن « فرويد » نفسه ، كان مشحونا بالأزمات والعقد التى لم ينفع معها تصعيدٌ ولا تنفيس ، ولا تطبيقٌ لشىء من نظريته الجنسية الفاجرة .

(هـ) ولو سلَّمنا بأن أقوال الصوفية ، فيها نوع من التصعيد والتنفيس عن انفعالات حبهم لله ولرسوله ، ولما يحبه الله ورسوله ، وفنائهم عن الكون بالمكوِّن ، وعن الأثر بالمؤثر ، لكان تسربًا محمودًا ، لطبيعة طية مكبوتة ، فى مستودع الحب الربانى المكنون ، فتصبح عبادةً أشبه بدعاء المضطر ، الذى يناجى ويبتهل ، تنفيسًا عما يجد ، فيرِقُّ ويروق ويرقَى ، حتى يكون أهلاً لاستجابة الدعاء ، أليس كذلك !؟

أما معانى المصطلحات ، فتُطلب من كتبهم ، وخصوصًا ما كتبه فيها الشيخ ابن عجيبة ، والشيخ على وفا ، ومَن قبلهم وبعدهم

* * *

السؤال الثالث

(س) ما رأيك فيما يقوله أبو حامد الغزالي من : « أن العقل يعجز عن كشف أو معرفة الحقيقة اليقينية التى هى « الله » ، وأن القلب وحده هو القادر على ذلك بالكشف ، إذا أخذت النفس بالطاعة والإخلاص ، وربما استطاعت عين القلب أن ترى الله يقظةً ، وفى حال الصحو » ؟

الجواب :

أما عن الجزء الأول من السؤال ، فقد أجمع المسلمون على عجز العقل عن إدراك حقيقة الذات المقدسة ، وذلك لأن العقل حادث ، والحادث لا يحيط بالقديم ، ثم لأن العقل محدود ، والمحدود يستحيل أن يحيط بغير المحدود ، ثم لأن الإدراك أثرٌ للتصور ، وكل تصور بشرى : مدموغ بالنقص . وتعالى الكامل أن يدركه الناقص ، ومن هنا جاءت القاعدة الراشدة : (كل ما خطر ببالك ، فاللهُ بخلاف ذلك) وجاء فى الأثر « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى ذات الله »(١) .

أليس المنطق تعلُّم آلة من الآلات للاستعمال العقلى ؟ فماذا ترى والقضية المنطقية بكل شروطها تثبت الأمر الواحد فى ترتيب آخر ، وهى هى ، وهو هو ؟! فعدم إدراك العقلِ للذات العلية ، قضية مفروغ منها « عقلا ونقلا » ولذلك قالوا : « تركُ الإدراك إدراك ، والبحثُ فى الذات كفرٌ وإشراك » .

وأما عن الجزء الثانى ، وهو قدرة القلب على الكشف ، باستصحاب الطاعة والتصفية والإخلاص ، فلعل سرَّ ذلك : أن الله تعالى جعل القلب مستودع الأسرار ، وخزينة الانفعالات المتقابلة ، ومستقر عجائب المعانى والغيوب ، فالبصر للمُلك ، والبصيرة للملكوت .

---

(١) وورد : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » [رواه أبو الشيخ ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن عدى ، والبيهقى فى شعب الإيمان] .

وروى أبو نعيم فى الحلية : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله » .

فمثلاً :

القلب مستقَرّ الإيمان ﴿ حبَّب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾[1]، وهو محل الألفة والحب ﴿ وألَّف بين قلوبهم ﴾[2]، وهو محل الطمأنينة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[3]، وهو محل التمحيص ﴿ وليمحص ما فى قلوبهم ﴾[4]، وهو محل السلامة ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾[5] وهو محل الذكرى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾[6]، وهو محل التقوى ﴿ ومن يُعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾[7]، وهو محل السكينة ﴿ أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ﴾[8]، وهو محل الرأفة والرحمة ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾[9]، وهو الربط الإلهى ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾[10] ، وهو محل الوجل ﴿ الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ﴾[11] ، وهو محل الخشوع ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾[12]، وهو محل الفقه ﴿ أم لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾[13] . . . الخ . فهو هنا مشرق الأنوار ، ومهبط الأسرار .

وفى المقابل نجد القلب محل الغل ﴿ ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ﴾[14]، وهو محل الزيغ ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتَّبعون ما تشابه منه ﴾[15]، وهو محل المرض ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾[16]، وهو محل الغيظ ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾[17]، وهو محل الريبة ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾[18]، وهو محل الرين ﴿ كلا بل ران على

---

(1) سورة الحجرات ، الآية : ٧ .
(2) سورة الأنفال ، الآية . ٦٣ .
(3) سورة الرعد ، الآية : ٢٨
(4) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٤ .
(5) سورة الصافات ، الآية ٨٤ .
(6) سورة ق ، الآية : ٣٧ .
(7) سورة الحج ، الآية : ٣٢
(8) سورة الفتح ، الآية : ٤ .
(9) سورة الحديد ، الآية : ٢٧
(10) سورة الكهف ، الآية : ١٤ .
(11) سورة الأنفال ، الآية : ٢
(12) سورة الحديد ، الآية : ١٦
(13) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .
(14) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .
(15) سورة آل عمران ، الآية : ٧
(16) سورة البقرة ، الآية : ١٠ .

قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[1]، وهو محل الامتحان ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾[2] ، وهو محل الرعب ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[3] ، وهو محل العمى ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[4] ، وهو محل الانغلاق ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾[5]، وهو محل الفظاظة ﴿ ولو كنتَ فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[6]، وهو محل الخصومة ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾[7]، وهو محل الغفلة ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾[8]، وهو محل الحمية ﴿ اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ﴾[9]. . . . الخ . فهو هنا مَجْمع المكاره ، وملتقى مساخط الله .

وهكذا ، لن نستطيع تتبع وظائف القلب وحركاته ، المردى منها والمرضى ، مما يدل على أن القلب هو مستودع سر الله ، ومستقر غيبه فى الإنسان ، ومن هنا جاء المعنى الدقيق فى قوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾[10] وهداية القلب إلهام وتوجيه وأسرار،وكشوف ، وشهود ، ومعارف ، وسمو ، وتَرَقٍّ فى معارج القرب لتحقيق معنى الهجرة إلى الله والفرار المطلوب منا إليه[11] . ولعل مما يكشف بعض أسرار القلب ، وكيف أنه خزينة النور الأقدس قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾[12] فما أروع وما أبدع ، وما أمتع (على قلبك) لا على شىء آخر !!

فلعل إمامنا الغزالى ، وقد رأى القلب بهذه المنزلة ، وتحقق من أنه

---

(١٧) سورة التوبة ، الآية : ١٥ . (١٨) سورة التوبة ، الآية : ٤٥ .
(١) سورة المطففين : الآية : ١٤ . (٢) سورة الحجرات ، الآية : ٢ .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ١٢ . (٤) سورة الحج ، الآية : ٤٦ .
(٥) سورة (سيدنا) محمد ﷺ ، الآية : ٢٤ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ . (٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٤ .
(٨) سورة الكهف ، الآية : ٢٨ . (٩) سورة الفتح ، الآية : ٢٦ .
(١٠) سورة التغابن ، الآية : ١١ .
(١١) فى مثل قوله تعالى ﴿ ففروا إلى الله ﴾، الآية : ٥٠ من سورة الذاريات .
(١٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٩٣

الكوة الوحيدة التى تطل منها الروح على عوالم الغيب ، ومساتير الخلق، فلم يستبعد أن يهب الله عبدًا صالحا صافيا لحظة فيض ومدد ، يأخذه فيها عن نفسه ، ويُشْهده بفضله حضرةَ قدسه ﴿ واللهُ غالبٌ على أمره ﴾ وللصوفية فى ذلك مقولات شتى ·

إنّ مشاكل السمعيات والغيبيات ، وعجائب القضاء والقدر ، ومعقدات حكمة الخلق والأمر ، وخفىٌّ أسرار العبادات ، كل ذلك ، لا يحلُّ معضلاتِه إلا القلب ، بعد أن أفلس العقل فى هذا المجال وتوقف ، ولا زال ، وسَيظل كذلك ·

ثم إن هذه من التجارب الصوفية التى لا مجال للتمنطق فيها ، وإنما هى من الجوانب العملية التى تثمرِ الأذواق والمواجيد ، وتتجاوب فى آفاقها الأشواق ، فلا يُدْرِكها تعبير ، ولا يلحقها تصور ·

وعلى كل ، فهى من المذاهب الفرعية ، التى مَن شاء قبلها ومن لم يشأ رفضها : ما لم يجرِّب ، وكلاهما مقدور ، ولعله مأجور ·

* * *

السؤال الرابع

(س) لماذا نشأ الصراع ، واشتد بين بعض الفقهاء والصوفية !؟
ولماذا يصر بعضهم على تكفير الصوفية ، كابن تيمية ؟
الجواب :

الصراع بين العلماء قديم ، والأسباب شتى ، حتى بين علماء المذهب الواحد . فكيف إذا اختلفت المذاهب والتهبت الحميَّة ، وتسلطت النعرة العصبية ، ونفخ الشيطان أو نزغ بين الإخوة ، وقد رأى بعض الفقهاء أن الصوفية يزاحمونهم السيادة والزعامة ، وأنهم بأساليبهم الروحية ، وما استُودعوه من الرقة ، والأدب ، والمعرفة ، والمكارم ، والتسامى ، والترفع ، يجتمع عليهم الناس ، فيجدون عندهم راحة القلب والعقل ، وسعادة الروح والباطن ، وعلاج ما استعصى على الناس علاجه من عقد النفوس والأزمات ، على ارتباطٍ مريح بالله ، وثقة بالغة فيه ، وفقه تام بدينه .

كل هذا بالإضافة إلى ما عند الفقهاء من بضاعة العلم المجرد ، والتسلط ، ودعوى احتكار الصواب .

هذا فى الأصل .

ويلى ذلك : ضيقُ بعض الفقهاء بما لم يحيطوا بعلمه ، ولـمّا يأتهم تأويله ، من قواعد الصوفية ، وخصائص دعوتهم ، والتزام هؤلاء الفقهاء بالوقوف على الشاطىء ، بينما سبح أولئك إلى الأعماق ، ومترامى الأبعاد . ثم دب بعد هذا فى التصوف دبيب الدسيس والدخيل ، والمبتدَع ، والمستنكَر ، فوجد الفقهاء وأشباههم الفرصة سانحة للهجوم ، لا على الدخيل والدسيس ، لتنقية هذا النبع الطيب مما شابه ، ولكنهم هاجموا النبع جميعًا بما شابهُ ، والنبعُ لا ذنب له - كما رأيتَ فى جوابى على سؤالك الأول - ، ومؤخذاة النبع مما داخَلَه : ظلم وتعسف .

وهنا لا بد من كلمة إنصاف لابن تيمية ؛ فإن الناس نظروا إلى

حملته على نوع التصوف الـذى رجَّح وجـوبَ الحمـلة عليه ، وتركوا - ظلمًا - ما نعت به ابنُ تيمية التصوفَ الصادق ، والصوفية الصادقين من كرائم النعوت ، ونوادر الخصائص ·

راجع ما كتبه فى (الفتاوى الكبرى) بالجزء الحادى عشر : فى الصحيفة السابعة عشرة ، وكيف وصف الصوفية الأبرار بأنهم من (أجَلّ الصدِّيقين ، وأنهم أكمل صدِّيقى زمانهم) ··· الخ ·

وفى « العقيدة الواسطية » لابن تيمية أيضا - قبيل نهايتها - كلام عظيم جدًا عن التصوف الحق والولاية ، وله كلام عظيم جدا فى حقيقة الفناء الصوفى ، يعتبره الصوفية تأييدًا وتشييدًا لمذهبهم المتين ·

وفى « ثبت »[1] ابن تيمية ، نسبتُه الروحية إلى الإمام الجليل الشيخ (عبد القادر الجيلانى) بجوار نسبته العلمية ؛ فقد كان الجيلانى من أئمة الحنابلة ، الذين يتصل بهم النسب العلمى لابن تيمية ، وقد سبق أن سجّلناه فى بعض ما كتبناه (بالمسلم) ·

وهنا مَلْحَظ دقيق جدا · هو : أنك لا تجد أبدا فى كلٍ ما هاجم به ابنُ تيمية مَن سبقه من أئمة الصوفية ، لا تجد إطلاقا أىَّ ذكر لشيخه الشيخ عبد القادر الجيـلانى ، وهو القطب الصوفى الكبير · وحسبك يا ولدى أن تعرف - كما قدمتُ لك - أن الإمام ابنِ القيم ، توفَّر على شرح كتاب الإمام الهروى ، الصوفى العظيم ، وأقرَّه ، إلا فيما لا يكاد يُذكر من بعض الأحكام والمواطن التى خالفه فيها ، فقد كان فى شرحه صوفيًا أكثر من الصوفية ، بل إنك تجد فى كثير من كتب ابن القيم تصوفا واضحا · وبخاصة فى كتاب « الروح » وكتابه « الجواب الكافى » وغيرهما ، وتستطيع أن تقول : إنَّ ابن تيمية ، وابنَ القيم تلميذه ، رجل واحد ، له اسمان مختلفان ، وهما على أكثر الوجوه صوفيان ·

وفى المناظرة بين ابن عطاء الله ، وابن تيمية يعترف ابن تيمية

---

(١) ما كتبه عن طريقة أخذه العلم والتصوف ، وممن أخذ شيخا بعد شيخ إلى نهاية مشايخه ·

بالتصوف السليم اعترافا مطلقا ، ويقرر أنه لا يهاجم إلا ما ترجَّح عنده خطؤه أو انحرافه ·

وعلى كل · فقد مضت كل هذه القرون ، وخصوم التصوف ينطحون صخرته الرابضة على مداخل الحق ، فلم تتغير حقيقته · ولم تضعف دعوته - رغم ما لا يزال ينخر فى جسمه من أمراض البدع والمناكر والمستكرهات - وسوف يبقى التصوف الحق لواء مرفوعا فوق كل الألوية ، تتهاوى ولا يهوى ، ويتعاوى أهلوها من حوله ، وهو لا يعوى ، ولا يلوى ، ولا يذوى ، وتبيد الدنيا ولا يبيد · وأحب أن تتأكد يا ولدى ، أننى أحترم ابن تيمية ، وأذكر له مواقفه الطيبة من حروب الصليبيين والتتار ، وربما أخذتُ ببعض آرائه الفقهية ، برغم حملته على الصوفية بعامة ، وبرغم حملتى على كثير مما نُقل عنه فى هذا الباب ، وما يتعلق به ، فالخصومة هنا لله وحده ، فهى خصومة علم وشرف ·

***

السؤال الخامس

لماذا جاءت كتب الصوفية ومؤلفاتهم منذ القرن الثامن الهجرى : خالية من الابتكار ؟ مقتصرة على الشرح والتفسير ؟

الجواب :

يا ولدى : « دفعُ المضرّات ، مقدَّم على جلب المنافع » وهؤلاء إنما كانوا فى موقف المدافع أمام حملات الخصوم التى لم تفتر ، ولن تفتر .

ثم ماذا تريد بالابتكار ؟ التصوف دين : « كتاب ، وسنة » وهم قد بيّنوا وأوضحوا ، فلم يبق مجال لجديد فى البيان والإيضاح والبلاغ على أساليبهم ، ولم يبق إلا التجديد فى العرض ، والدعوة - وذلك ماض بحمد الله - فما أكثر ما كُتِب ويُكتب وسيكتب فى التصوف : ما له وعليه ، إلى يوم القيامة .

ولو كان التصوف ميتًا ، ما هاجموه ؛ فالموتى لا يهاجمهم أحد ، ولو كان ضعيفا لأشفقوا عليه ، أو لما اهتموا به ؛ فالضعيف لا يهم أحدا ، ولا يعنى به أحد ، فكل ما تراه الآن حول التصوف هو : البرهان - الذى لا يُدْفع - على حياته وقوّته ، وبالتالى على خلوده وسطوته ، وعلى أنه الحق - والحق أحق أن يتبع .

أما دخيله ودسيسه ، فهو شىء آخر ، وله حكم آخر .

* * *

الباب الثالث

أسئلة صحافية أخرى
بالغة الأهمية
وأجوبة صوفية وفقهية
قاطعة جلية

[سألها أحد الصحافيين العرب وطلب ألاّ يذكر اسمه]قال:

السؤال الأول

(س) يقولون : لم تَردْ كلمة صوفية أو تصوف فى كتاب الله ، أو على لسان الرسول ﷺ أو الصحابة ، والله تعالى يقول ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ﴾(١) ، ويقول : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾(٢) .

الجواب :

التصوف ليس ديناً مستقلا عن الإسلام حتى يواجَه بالاحتجاج بهذه الآيات ، وإنما التصوف مذهب من مذاهب المسلمين ، يدور فى فلك الإسلام ، على أرقى وأنقى معانيه ، وكما جاز أن يسمّى البعضُ أنفسهم (أو سمّاهم الناس) « سلفية » بلا نقد ولا اعتراض ، فكذلك سمى أهل هذا المذهب أنفسهم ، أو سماهم الناس « صوفية » ، ولا نقد عليهم ولا اعتراض ، فالحكم هنا وهنا واحد . وهو أشبه بقولهم : مالكى ، وشافعى ، وحنبلى ، وإباضى ، وزيدى ، ووهابى ، وسعودى ، وحافقى ، وظاهرى . . . . الخ .

فالسلفية ، والتسلف ، والسلفي : ألفاظ لم ترد إطلاقًا لا فى الكتاب ، ولا فى السنة ، وهم يختصّون أنفسهم بها ، ولا يرون بذلك بأسًا ، بل يرونها فخرًا وشرفًا .

والصوفية ، والتصوف ، والصوفىّ ، ألفاظٌ شأنُها شأنَ تلك الألفاظ ، سواء بسواء ، وحكمُها حكمَها من كل الوجوه ، وليس كل اسم أو وصف لم يأت فى القرآن ، أو السنة ، يحرم التسمّى به ، وكذلك الألقاب والنسب ، فالاعتراض من هذه الوجهة ساقط ذليل ، لا يقول به عالم ولا عاقل .

ثم إنه إذا كان اسم (التصوف) غير موجود ، بلفظه ، فإن المادة والحقيقة موجودة ، شأنَ كل علوم الدين التى وضعت أسماؤها فى عهد التدوين . ثم إن الإسلام محيط شامل لكل أهل القبلة ، سواء منهم

---

(١) آخر سورة الحج .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

الطيب والخبيث ؛ فالقاتل من أهل القبلة (أهل لا إله إلا الله) مسلم . وكذلك الزانى ، والسارق ، والمرابى ، والمرتشى ، والفاجر ، كما أن الصالح ، والذاكر ، والمخبت ، والصابر ، والمتوكل ، والمجاهد ، والمعطاء ، والعابد ، هو (من أهل لا إله إلا الله) ؛ فكل واحد من هؤلاء مسلم عقيدةً ، وإن اختلف خلقًا وعملاً أو معاملة .

ومِنْ ثَمَّ كان من التشريع القرآني : أنْ يُعرف الناس بخصائصهم .

وعلى هذا السبيل جاء فى القرآن ذكر « المهاجرين والأنصار » وجاء ذكر « الصدِّيقين ، والشهداء والصالحين » كما جاء ذكر « السابقين ، والمقربين ، والمخبتين ، والأولين ، والآخرين » ، وفى آية الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ ذكر الله عشرة أصناف من المسلمين ، كما تناثرت فى القرآن أوصاف أخرى ، لأهل القبلة غير وصف المسلم .

فإذا ذكرنا الناس بخصائصهم ، فذلك اقتضاء طبيعى حتمى للتعريف والتصنيف ، لا يمكن أن يعترض عليه عاقل ولا عالم ، فهو من المسلّمات البدهية ، التى لا تخفيها المغاليط ، والجهالات ، والتعصب الكريه .

فإذا أضفنا إليه « أنه كما رأيتَ - تشريع قرآنى متبع - كانت اللجاجة حوله هرطقة عصبية لا احترام لها ، لمخالفتها للمنهج القرآنى ، ثم لمعقولية الأشياء وطبائعها .

وعلى هذا السَّنَن جاء فى القران ما هو مدنى ، وما هو مكى ، وعرف الناس كثيرا من الصحابة بخصائص النسبة إلى أوطانهم الأولى ، فقالوا : « بلال الحبشى »،و« صهيب الرومى » ،« وسلمان الفارسى » .

كما ينسب كثير من الناس إلى الحرف ، والمهن ، والوظائف ، والأعمال المختلفة ، بلا نكير فى كافة الأزمنة والأمكنة ؛ فالنسبة إذن إلى المذهب أو الدعوة شىء لا بدعة فيه ، ولا حرمة ، ولا كراهة .

وهكذا يقال كما قدَّمنا : مسلم شافعى ، أو مالكى ، أو حنبلى ، أو شيعى ، أو وهابى ، أو مصرى ، أو شامى ، أو يمنى ، أو مغربى ، أو صوفى ، أو سلفى ، بحكم الاقتضاء الذاتى والقواعد اللغوية ، والمنهج القرآنى والطبيعة الحتمية المحكمة ، والضرورة العقلية الحاكمة .

جمعية كذا وكذا :

إن المغرمين بتكرار هذا الاستشكال التافه ، هم بعض إخواننا من أتباع بعض الجمعيات المعروفة بمظهرياتها وتطرفها وسطحيتها ·

ونحن نسأل هؤلاء الإخوة : هل جاء فى القرآن أو السنة مثلاً « اسم الجمعية الفلانية ، أو العلاّنية ، أو جماعة كذا وكذا » ·

إنَّ الحكمَ هنا ، هو الحكم هناك ، فكيف يكون هنا حلالا ، ثم يكون هناك حراما ؟

أيها الإخوة : شيئا من العقل · · · شيئا من العلم · · · بل شيئا من الأخلاق !!

ومن جهة واقعه : ما هو الشىء الذى يراد باسم التصوف الإسلامى ؟

إنه هو : الإيمان ، والعمل ، والحب ، والأخلاق ، والعبادة ، والتسامى ، والدعوة ، والجهاد ، على أرقى مستوياتها جميعا ، وهذه العناصر جميعا ، وما يتفرَّع منها أمهاتٌ ومقامات التصوف كلها ، من الصبر والتوكل ، والعفو ، والرضا ، والشكر ، وغيره من أصول منصوص عليها فى الكتاب والسنة باتفاق أهل القبلة ·

وقد أطلقوا عليها اصطلاحًا : لفظ التصوف ، فأطلق أنت عليها ما شئتَ من الأسماء ؛ فإن الأسماء لا تغيِّر الحقائق : سَمِّه : تنسكا ، أو تبتلا ، أو تزكيًا ، أو ربانيةً ؛ فالناس يتعاملون مع حقائق الأشياء ، لا مع أسمائها !!

أسماء علوم الإسلام :

ثم انظر معى يهدك الله : هل جاء فى القرآن أو السنة اسم (علم أصول الدين) أو (علم أصول الفقه) أو (علم مصطلح الحديث) أو (علم الفقه المقارن) أو علم (التفسير) أو (مقارنة الأديان) أو (علم النحو) أو علم (البلاغة) أو (البيان) أو علم (الأخلاق) أو (علم الكلام) أو غيرها من العلوم الدينية ، أو العربية ، فضلاً عن

أسماء علم الحضارة والفنون، والثقافة ، والرياضة ، والطب ، والفلك ، والذرّة على تنوعها ومراتبها ؟ طبعًا لا ، ثم لا !!

فلماذا لا يوجَّه هذا الاعتراض على أسماء هذه العلوم ، كما يوجه إلى علم التصوف ؟! .

وكيف يجوز الأمر الواحد فى جانب ، ويمتنع فى جانب آخر ، مع التماثل المطلق فى كافة الأركان القياسية والعلمية ؟

هذه دعوى متهافتة من البداية للنهاية ، دعوى الاضطغان ، والعصبية ، والعنصرية ، والمذهبية التى لا عقل لها ، ولا علم بها ولا خُلق معها ، ولا تقوى فيها ، والإسلام والعقل - على وسع رحابه - يرفضها ، وينكرها ، ولا يرضى عن أصحابها ؛ فليس من ورائها إلا الفتنة وتفتيت الإسلام ، وضياع المسلمين ، كأنما لم يبق من الموبقات شىء ، وهى بغير حدود ولا قيود .

الدخيل والمدسوس فى علوم الدين .

وقد أكثروا القول بأنه : يجب القضاء على التصوف لما فيه من دخيل ومدسوس .

نقول : فهل نقضى أيضا على (الحديث النبوى) لأن فيه عشرات الألوف من الدخيل والمدسوس !؟

وهل نقضى على التفسير لأن بعض كتبه محشو بالعبرانيات ، والخرافة ، والتهويل ، وبلاهة النقل ، وسوء التأويل ، والشطط ، وتأكيد الشعوذة !؟

وهل نقضى على كتب (التوحيد) لما فيها من القضايا المنحرفة ، والأفكار المضطربة ، والمذاهب المفتونة ، والتصورات الضالة ، والأقيسة المضللة !؟

وهل نقضى على كتب (الفقه) لأنها متخمة بالفروض المستبعَدة ، والخلافات المستكرَهة ، والأفكار المعقدة ، والحيل المنافقة ، والاستخراجات المؤسفة !؟

ثم ، هل ، وهل ، وهل ، إلى آخر هذه السلسلة الطويلة !؟

إن المعقول المقبول : أن تطلب التبيان ، والنصح والتصحيح ، وتجريد هذه العلوم من أمراضها ، ومما أصابها من الطفليليات ، والحشو والتخلف ، والتجمد ، والفضول ، واللغو ، والالتواء ، والزغل .

وهذا ما فعله كثير من السلف ﷺ .

وهذا هو ما يجب أن يُطبق على علم التصوف تماما ، وإلا لم يكن المراد الإصلاح أبدا ، إنما هو الهدم والتخريب والتدمير المجنون ، الذى لا ينتسب إلى عقل ، ولا إلى خلق ، ولا إلى علم ، ولا إلى دين .

وهذا ما لا يمكن أن يرضاه مسلم يقدِّر معنى شهادة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وما يترتب عليها ، وما يتعلق بها فى الخصوص والعموم ، وفى الحِسِّ والمعنى ، وفى الحاضر والمستقبل . والله لا يحب الظالمين .

* * *

السؤال الثانى

(س) : يقول بعضهم : ماذا يضر الإسلام لو أننا شطبنا التصوف من بيئة المسلمين ؟ (كما جاء فى مقال بعض المجلات السلفية) ٠

الجواب :

الإجابة هنا فى غاية البساطة؛ فالتصوف كما عرَّفه أهله بأنه (التخلِّى عن كل دنىّ ، والتحلِّى بكل سَنِىّ)حِساً ، ومعنًى،خصوصًا ، وعمومًا ، مع الفرد والمجتمع ، على ما تقرر فى كتاب الله وسنة رسوله ، وإن اختلفت المفاهيم والاجتهادات فى الفروع ، وبخاصة فيما يتعلق بالأخلاق ، والآداب ، والسلوك ، والعبادة ، والدعوة ٠

فالتصوف بهذا المعنى هو : حقيقة الإسلام ، وهو ما نعتقده ، ونخدمه ، ونتعبد به ، وندعو إليه ، ونكافح دونه ، فإذا ما شطبنا كل هذا المعنى من الإسلام ، فما الذى يكون قد بقى من الإسلام ؟٠

أما التصوف بمعنى الحلول والاتحاد،والوحدة المحرمة ، وبمعنى الطبل ، والزمر ، والرقص ، والخرافة ، وتحريف أسماء الله ، والتعطل،والتبطل ، والقول برفع التكليف ،أو مخالفة الشريعة للحقيقة ، ودعاوى الولاية ، والاتجار بالخوارق ، وما إلى ذلك ، فنحن والصوفية الشرعيون جميعا : أولُ من نادى وينادِى بشطبه ، كما نادى سلف الصوفية بشطبه ، وما تألَّفت (العشيرة) وجاهدتْ إلا لهذه الخدمة !!

ولكنَّ إخوانّنا خصوم التصوف الحق ، يشعرون من قرارة نفوسهم بقوته ، وصموده ، وصحته ، وخلوده ، فيلجأون إلى التهويل ، والتعميم ، والنفخ فى (بالونات) القشور ، والسطوح ، والمجازفة بإصدار أحكام : الشرك ، والردة ، والكفر ، والزندقة ، والفسق ، على كل من ليس منهم ٠

وهم معذورون - عند أنفسهم - بما نعلمه نحن وما يعلمونه ، مما تكفى فيه الإشارة عن العبارة ٠

أعاذنا الله من عبادة : المشالح ، واللحى البترولية ، واتخاذ الدين وسيلة إلى الدنيا الفانية ، ولا قوة إلا بالله ٠

* * *

السؤال الثالث

(س) ولكنهم يقولون : إنّ ما يعترضون فيه على التصوف أمور تتصل « بلا إله إلا الله » ... بالتوحيد ؟

الجواب : إجماع السلف والخلف على أن « أهل القبلة كلهم موحدون » وما صدر من بعضهم « جهلاً أو تأويلاً ، أو اجتهادا ، أو غيره ، من عمل أو قول ، وخصوصا من المتشابه ، تَعَيَّن أن يُحمل على أشرف وأحب وجوهه ، وإن كان احتمالا واحدا من تسعة وتسعين احتمالا ؛ فليس من حق أحد أن يُخْرِج أحدًا من دين الله ، إلا أن يكون كفرَ كفرًا « بواحًا صراحًا » لا يحتمل العذر ، أو التأويل .

وليس كذلك شأنٌ واحد من الصوفية الأبرار .

الا ترى كيف غضب رسولُ الله ﷺ على ذلك الصحابى الذى قتل رجلاً نطق بالشهادتين « تقاة» وهو ﷺ يردد : « أقالها وقتلته ؟؟!» وكيف تبرأ الرسول من عمل الصحابى الذى قتل من قالوا « صبأنا » يريدون « وحَّدنا » وخرجنا من الكفر إلى الإيمان[1] ، وكيف لم يعترض

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى جـ٤ ص٣٠٦ طبع الحلبى ما نصه : « عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها !! » . فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبى ﷺ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهبًا ما بلغتم أعمالهم » .

ومعلومٌ أن إسلام خالد بن الوليد المواجَه بهذا الخطاب كان يوم صلح الحديبية ، وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك » إهـ .

وقال رسول الله ﷺ - فيما رواه الطبرانى :

« لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه » .

رسول الله على سيدنا « سعد » عندما جعل عينَ الماء صدقةً على أمه . وقال : « هذه لأم سعد » . وكيف أنه ﷺ عصم دماء « المنافقين » بنطق الشهادتين ، وهو يعلم أشخاصهم وأسرارهم ، وكيف أن الإسلام قرر دفع الحدود بالشبهات[1] ، فـ « لأن يخطىء القاضى فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » والمذاهب الإسلامية أولى بهذه القاعدة .

لهذا كله ، كان : كل من نطق بالشهادتين موحِّدًا ، معصوم الدم والمال ، وإن جهل ، وإن عصَى[2] .

وأخيرًا : هو من أهل الجنة بنص الأحاديث الثـابتة فى كل ما قدَّمنـاه .

أما إنه شىء يتصل بـ « لا إله الا الله » ، فهل هناك شىء لا يتصل بها ؟

كل شىء عرفه الناس أو يعرفونه ، من كل أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، وأفكارهم ، فهو متصل بـ « لا إله إلا الله » بوجه من الوجوه ، وبحقيقةٍ من حقائق الأزل والأبد .

ألم أقل لكَ : إنها السطحية ، والغرور ، وإنه التهويل ، وإنه الخروج بالأشياء عن أسمائها وأحكامها ، وإلباس المسميات غير أسمائها فى سبيل تأييد المذهب ، وتأكيد العنصرية التى يرفضها الدين والعلم ، والخلق ، فى سبيل العمالة ، وبيع الدين ، والوطن جميعا .

* * *

---

(١) لقوله ﷺ : « ادرءوا الحدود بالشبهات » [رواه ابن عدى فى جزء له ، وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم ، والبيهقى ، والدارقطنى . وأبو مسلم الكجى ، وابن السمعانى] .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « كفّوا عن أهل « لا إله إلاّ الله ، لا تُكفِّروهم بذنب ؛ فمن أكفر أهل لا إله إلا الله ، فهو إلى الكفر أقرب » . [رواه الطبرانى]

السؤال الرابع

وهنا أذّن مؤذن الوقت ، فقال السائل الصحفى للشيخ :

بهذه المناسبة : **ما رأيكم فى الأذان الشرعى ، والبِدْعى ؟**

فقال الشيخ : أرجو أن نتحدث فى هذا بعد الصلاة .

ثم بعد أن ختمت الصلاة ، قال الشيخ :

الجواب :

وهذه أيضًا من المسائل البسيطة ، والدقيقة فى الوقت نفسه ، لولا ما يثيرونه حولها ؛ فليس هنالك أذان شرعى ، وأذان بدعى ، إنه الأذان الإسلامى ، فلا يجوز أن يسمّى مبتدِعا مَن يُذَكِّر الناس بالشهادتين ، ويدعوهم إلى الصلاة والفلاح ، فى الوقت الذى حددته الشريعة ، وبالألفاظ الواردة ، وإن التوى بها لسانه ، أو تجاوز فى أسلوب الأداء .

ولكن هناك أذان « منغّم » ، وأنا أميل إلى الأذان البسيط ؛ لأنه أسلوب عملى ، يستطيع أن يقوم به أكثر الناس ، بلا تكلف ولا صناعة ولا معاناة ، ولكننى أنكر طريقة الأداء التى يتعمدها بعضهم فى أداء هذا الأذان البسيط ، فيخرج به عن سماحته وحسن هَدْيه ، حتى لكأنه فى معركة ضارية مع الريح ، هى إلى الإزعاج والتحدِّى والغل أقرب منها إلى الدعوة والتذكير ، وليس هذا من أذان الإسلام فى شىء على الإطلاق .

إن رسول الله ﷺ أمر صاحبَ رؤيا الأذان ، أن يعلّمه بلالاً « لأنه أندى(١) صوتا » . وقد سمع عمر بن عبد العزيز رجلا يُفزع الناس بالأذان، فقال له : « أذّن أذانا سمحا ، والا فاعتزِلنا » . وقد كان الناس

(١) قال فى القاموس : « وأندى . . . أو حَسُنَ صوته » .

« . . . وهو ندىّ الصوت – كغنى – : بعيده » اهـ .

وقد جمع سيدنا بلال رضي الله عنه بينهما : كان جميل الصوت رفيعه .

وقال الشاعر :

وقلتُ ادعى وأدعو إنّ أندى الصوت أن ينادى دعيان

أى أعلى وأرفع ، وأشد إسماعاً لمن يناديه .

- لعهد النبوة - يضربون المثل بأداء الأذان الجميل من « أبى محذورة » أحد مؤذنى رسول الله ﷺ ، حتى قال بعض شعرائهم :

بما تلَى محمدٌ مِن سوره ... وبالأذان مِن أبى محذوره

لأفعلن فعلةً مشكوره

فقرن حُسْنَ تلاوة رسول الله للقرآن بحسن أداء أبى محذورة للأذان

بقى من سؤالك : هل الأذان « جزم » أو « إعراب » !؟

هذا وارد ، وهذا وارد ، وقد ذكرتُ الحديث الدال على الإعراب مسندًا مشروحًا فى بعض ما كتبتُ قبلاً (بمجلة المسلم) ، ثم اطلعت أخيرًا على بحث طيب للأستاذ « ناصر الدين الألبانى » وهو من كبار (المتمسلفة) يقرر فيه صحة الأذان بالإعراب ، مستدلاً بما استدللتُ به ، مع زيادات أخرى .

والإعراب هنا : معناه ، جمع التكبيرتين مع (رفع) أى ضم الراء فى التكبيرة الأولى .

أما قولك « بأى الصورتين كان يؤذِّن لرسول الله ؟ » فذلك ما لا يجرؤ عالم يخشى الله أن يحدِّده على التعيين ؛ فإنه لم يكن لعهد رسول الله « ريكردر » يسجل الصوت والأداء ، فمتى تحقق فى الأذان تصحيح الألفاظ ، وحسن الإلقاء ، فذلك هو المشروع ، ولهذا اختلفت طريقة الأداء والأصوات فى جميع بلاد المسلمين .

ولقد كنت فى صباى أذهب أحيانًا - قبل أذان الوقت - مع بعض لداتى من الأزهر إلى مسجد المرحوم « الشيخ محمود خطاب السبكى » رحمه الله ، لأتمتع ومن معى بسماع الأذان من المرحوم « الشيخ سرحان » مؤذن المسجد وقتئذ ، فقد كان يؤذِّن هذا الأذان البسيط بـ«حال» كما يقول الصوفية : فيتأثر به كل من سمعه ، لدرجة البكاء فى بعض الأحيان .

أما الأذان « المنغَّم » فلا يجوز إذا خرج بالكلمات عن أصولها المقررة فى علمَى اللغة والتجويد : « لا شك فى ذلك » فهو لهذا مكروه ، ولكنه لا يكون كبيرةً موبقة ، أو بدعة مهلكة .

* * *

السؤال الخامس

(س) : بهذه المناسبة ، لاحظت أن إمام الصلاة هنا ، لا لحية له ، وقد رأيت بعضهم لا يصلى خلف من لا لحية له ، بل يرميه بالفسوق ؟

الجواب :

لا يوجد مسلم واحد يقول بأن اللحية ليست سنّة ، سواء أكان ملتحيا أم لا ؛ فسنيتها ثابتة ، لا يمارى فى ذلك أحد إطلاقا ، أما أنّ تاركها فاسق ، فهذا الحكم هو : الفسوق عن العلم وعن السنة معا . وهذا ما حدا بى إلى كثرة البيان فى هذا الباب .

وفى كتاب « زاد المسلم » وشرحه « فتح المنعم » ، ما يؤكد هذا المعنى ، عند ذكر إعفاء اللحى وإحفاء الشوارب ، وهل هو مما عمّت به البلوى ؟

إنك تستطيع ان تسمّى تارك توفير اللحية « مخالفا ، أو مقصرًا ، أو مهملا ، أو متهاونا ، أو حتى عاصيا » . أما أن تقارن بينه وبين مرتكب الكبائر الموبقة ، فتسحب عليه حكم الفسق لعدم توفير اللحية ، فهذا هو الغلوّ فى الدين بغير حق ، وبغير عقل أيضا ، وإلا فبماذا تصف القاتلِ ، والزانى ، والسارق ، والمرابى ، واللائط ، وقاطع الطريق ؟؟ ونحوَهم من المسلمين ؟؟

راجع إن شئتَ مبطلاتِ الصلاة ومفسداتها ، فى كل مذهب إسلامى ، فلن تجد من مبطلاتها ، تركَ توفير اللحية ، فلماذا لا يصلى أحدهم وراء الحليق المتفقّه ، وبخاصة إذا اعترف بالتقصير ، مقرّاً بالسنيّة !؟ وحكم السنة : الأجر على العمل ، والحرمان منه مع الترك ، ولم يقل أحد بأن حكم السنة هو حكم الفرض أبدا .

إن مما حفظناه عن شيوخنا ، قولهم : « ان من السنة إيمانًا ، تركُ السنة أحيانا ؛ لئلا تأخذ حكم الفرض عيانا » !! .

يا ولدى : أركان الإسلام خمسة ، ليس منها توفير اللحية ، وأركان

الإيمان ، وأركان الإحسان (كما صح بها حديث جبريل) ليس منها توفير اللحية ٠ وشروط صحة الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والطهارة ، ليس منها اللحية ، وكذلك مبطلات العبادات ، كلها ليس منها ترك توفير اللحية ، على جميع المذاهب ، سلفاً وخلفًا كتابًا وسنةً ، نصًا واجتهادا ٠ إذن فهى ليست سنة عبادة ، إنما هى سنة عادة ، وكان العرب على اختلاف أديانهم وعقائدهم ، يطلقون لحاهم ، ولا زال الأحبار والرهبان ، فى الشرائع السماوية والأرضية يطلقون لحاهم ، فهى ليست من سنن الإسلام الخاصة به ، أو التى يخالف بها سواه ، فتكون فرقا بين المسلم ، وغير المسلم أو بين التقى والشقى ٠

ولا يزال مَن يسمونهم « الفنانون ، والفلاسفة » فى عصرنا « والخنافس ، والهيبز ، والمجاهرون بالفسق ، والملحدون ، والشيوعيون والرقاصون ، والطبالون ومثلهم » يطلقون لحاهم ٠

فالتغالى بتسمية تاركها فاسقًا ، قول بعيد عن الإنصاف العلمى والدينى ، وعن حب السنَّة ، وعن حب رسول الله  ، وعن يسر الإسلام ورفقه ٠

* * *

السؤال السادس

س : يظهر أن مفهوم إحفاء الشوارب يختلف من جمعية لأخرى ، ومن رجل لآخر ؛ فقد شاع فى هذه الأيام استئصال الشوارب نهائيا ، مع توفير اللحى بكثافة ؟

الجواب : هذه ظاهرة عجيبة فعلاً - فيما أعرف - فإن ألفاظ الأحاديث التى أحفظها فى هذا الباب بين « قصوا ، وأحفوا » وهما لا يؤديان معنى الحلق أو الإبادة ، أو الاستئصال الذى نراه اليوم ، فالإحفاء يفسره النص ، والمراد به : تقصير الشارب ، فقط ، لما فى ذلك من منافع صحية وعملية ، ولذا كان مما اختاروه جميعًا : **أن تظهر أطراف الشفة تحت الشارب ، أى أن يكون هناك شارب ، ولكن لا يتدلَّى على الفم ؛ لأن الشارب علامة كبرى من أهم علامات الرجولة : « والتنسيق بينه وبين اللحية يعطى المهابة ، والرجولة ، ولهذا شرطوا ارتباط سوالف الشارب باللحية .**

يا ولدى : الإسلام : سَمْحٌ هين لين [1] ، وهو فى نفس الوقت قوى صامد شامخ ، وفى الحديث : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله »[2] ويقول ﷺ « يَسِّروا ولا تُعَسِّروا »[3] ؟ ويقول : « لن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدوا وقارِبوا » أنظر إلى قوله « قاربوا » بل إلى قوله ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما

---

(١) بسكون الياء فيهما ، وليس بالتشديد ، راجع فى ذلك مختار الصحاح ، وذلك معناه أن فيه القوة ولكنه يستعمل اللين والرفق ، وأما بالتشديد فمعناه : الضعيف ، أو باللفظ البلدى (الخرع) .

(٢) وورد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » رواه البخارى فى الأدب وأبو داود .

(٣) رواه الإمام أحمد ، والنسائى ورواه البخارى ومسلم .

استطعتم »[1] ، فقد أذن لنا فيما أمر : أن نأتي منه ما استطعنا . وليس بعد هذا تيسير أو رفق ، وسماحة .

وفي حديث ابن عمر : كنا إذا بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة ، قال : « فيما استطعتم . . . »[2] والله يقول : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[3] .

فأين هذا مما نرى الآن ، وما نجد من عدوانية بغيضة باسم السنة ، ومن ضغينة على الناس ، وغرور ، وحقد ، وغل أسود ، وأحمر ، وأزرق باسمها ، على حين يقول الله على لسان المؤمنين ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ﴾[4] .

سماحة الإسلام ، هي العلاج ، ولكن : كيف تكون علاجا ، وقد جعلوا منها كآبةً ، وتجهمًا ، وغمًا ، وأغلالا وسعيرا ، وسجنا كبيرا ، بما يلوون من عنقها ، وما يُعَسِّرون من يسيرها ، وما يُفسدون من أحكام الفروض والنوافل والسنن ، وما ينقلون من أحكام الأصول إلى الفروع ، كأن مِن شرط إعفاء اللحية : بغضُ جميع الناس .

ولقد قرأتُ في الأعداد الأخيرة من مجلة (الدعوة) كلمةً لأخينا في الله الشيخ محمد الغزالي السقا تهكمًا عنيفًا على مَن يظنون أن حقيقة التدين في شعرات تعفَى ، وشعرات تُحْفَى ، واستشهد بقول المتنبي فيما هجا به كافور ومن حوله :

أغايةُ الدين أن تحفوا شواربكم ! ؟

يا أمة ضحكتْ مِن جهلها الأمم !!

وقد رأينا بأعيننا المرحوم الأستاذ الشيخ محمود خطاب السبكي

---

(1) ومن الفاظه : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم » رواه مسلم .

(2) وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا » .

(3) سورة التغابن الآية : ١٦ . (4) سورة الحشر الآية : ١٠ .

(مؤسس الجمعية الشرعية) ، ورأينا المرحوم الشيخ حامد الفقى (مؤسس أنصار السنة) ، ورأينا المرحوم الشيخ رشيد رضا ، ورأينا المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، ورأينا المرحوم الشيخ مصطفى صبرى (آخر مشايخ الإسلام فى تركيا لعهد الخلافة) ، ورأينا غير واحد من شيوخ الأزهر المرموقين ، كالمرحوم الشيخ الخضر حسين؛ والمراغى ، وعشرات لا تحصى من كبار العلماء وأهل الفضل ، ورأينا صور من لم ندرك من الأشياخ كالمرحوم الشيخ سليم البشرى ، ومن قبله الشيخ محمد عبده ، فلم نلاحظ أن واحداً منهم استأصل شاربه وأباده نهائيا بهذه الطريقة الحديثة ، التى نقول : إن الجمهور يسميها (مسخا) للسنة والفطرة ٠

بل يظهر أيضًا أن التجديد وصل إلى تصفيف اللحية ، فرأينا منها الآن الشكل (العمانى) والشكل (الإيرانى) والشكل (الهندى) والشكل (البترولى) والشكل (الصينى ، والروسى ، والأوربى) مما خرج بالموضوع عن المعنى الدينى نهائيا ٠

* * *

عودة إلى ظاهرة إبادة الشوارب
وردٌ بالغ الأهمية

انتشرت هذه الظاهرة انتشارا ملفتا للنظر ، فترى الشاب أو الرجل يفتح اللهُ عليه ، ويوفّقه فيوفّر لحيته ويُعفيها ، ثم يذهب فيستأصل شاربه ويبيده ، فيبدو للناس خَلْقًا آخر ، إن لم يكن كريهًا ، فهو على الأقل : لافت للنظر ٠

وكنت أشرتُ إلى هذا فى بعض إجاباتى على أسئلة بعض الصحفيين ،وقررت أن الإبادة والاستئصال بهذه الطريقة نوع من (المسخ) الذى لا يتلاءم مع تقاليد الإسلام وجماله (ودعوته إلى التوسط والتجمل والتنسيق) فجاءنى كتاب من ولدى السيد : الدكتور « عز الدين طه الدالى » يطلب مزيدًا من التدليل أو الرجوع عن هذا الرأى ٠

فأقول : إننى لا أزال عند رأيى ،**وقد قال مالك والشافعى : (إحفاء الشارب مُثلةٌ) وعندهما أن المراد بالإحفاء أو الإنهاك فى الحديث ، هو أن يؤخذ من الشارب ، حتى يبدو طرف الشفة فلا يغطيها الشعر ، وهذا هو القص ، أى الأمر الوسط المفسر لواقع الحكم وحكمة التشريع ٠**

والإسلام دين الوسطية بين الإفراط والتفريط ٠

وقال أشهب : سألتُ مالكًا عمّن يُحفى شاربه - يعنى يستأصله - فقال : « أرى أن يوجَع ضربا » ، أى أن مالكا يرى هذا الفعل معصية تستوجب التعزير ، فوق أنها عندنا شنعة ، ومسخ ، وتشويه ، وقبح لافت للنظر ٠ « فصاحبه يبدو لا هو شيخ ولا هو صبى » ٠

وجاء عنه ﷺ أنه قال لمن يحلق شاربه : « هذه بدعة ظهرت فى الناس » ، أى لمخالفتها للفطرة التى ميزت ظواهر الفرق بين الرجولة والأنوثة ، دونٍ تشويه ، ولا مثلة ، ولا شنعة ، ولا مسخ ، ولا لفت نظر ، واللهُ تعالى سوى الإنسان وعدّله وخلقه فى أحسن تقويم ٠

وأخرج أحمد ، والترمذى ، والنسائى - وصححه - قال ﷺ :

« من لم يأخذ من شاربه ، فليس منا » فهو صريح فى أن المراد بالقص والإحفاء ، والإنهاك ، مجرد الأخذ من الشارب ، أى تخفيف كثافة شعره ، وهو الكمُّ المشترَك بين جميع الأحاديث الواردة فى هذا الباب ، وهو المناسب للذوق والانسجام .

ويظهر أنها عادةٌ انفرد بها بعض أهل مصر من قديم وقد لامهم المتنبى فى ميميته المشهورة التى وجهها إلى « كافور الاخشيد » يقول :

أغايةُ الدين أن تحفوا شواربكم   يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ولذلك قال محدِّث الصعيد الإمام ابن دقيق العيد : « لا أعلم أحدا قال بقص الشارب من حيث هو » أى إبادته واستئصاله ، فيكون أشبه شىء بالمسخ والمثلة !

والسادة الإمامية يمنعون ذلك منعًا باتا .

وقد روى عامر بن الزبير ، أن أمير المؤمنين عمر ، كان إذا غضب فتل شاربه ونفخ ، يعنى فتل (السبالين) وهما طرفا الشارب ، ولا يتأتى ذلك مع استئصال الشارب وإبادته واستهلاكه ، ومسخ صورة صاحبه ، وليس أحدٌ أعرفُ بالسنَّة من الخلفاء الراشدين ، فظهر أن استهلاك الشارب وإبادته مع إعفاء اللحية ، إنما هو نوع من التبدع والغلواء فى الدين بغير حق ولا برهان صحيح .

غفر الله لنا جميعًا ، وهدانا إلى ما يحب ويرضى ، وهو الموفق والمستعان .

السؤال السابع

(س) ألا ترى أن فى ترك أو إهمال توفير اللحى تعطيلاً لبعض السنن !؟

الجواب : نعم ، ولا أقول أبدا بالترك ، ولكنها ليست من السنن الأصول - كما أسلفتُ - أعنى السنن التى ترتبط بالعقيدة أو العبادة ، فكم من سنن أخرى معطَّلة ، لا يجرؤ على العمل بها أحد من هؤلاء ، فمثلاً كان لرسول الله ﷺ (قدح) يضعه تحت سريره ليتبول فيه ، وفى بعض كتب الشمايل : كانت له ﷺ غدائر (يعنى ضفائر) ! .

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه ، أو ألعقها غيره .

وكان ﷺ يكتحل بالإثمد ، و يحث عليه .

وكان يضطجع فى الفجر بين السنة والفريضة .

وكان ، وكان - كما هو ثابت فى كتب الشمايل والخصائص - وهى سنن معطَّلة لا يعمل بها منهم أحد .

والملاحظ أن إخواننا هؤلاء ، ما شاءوا فعلوا ، وما شاءوا تركوا . فما اختاروا فعله : جعلوه من سنن العبادة ، وإن لم يكن منها .

وما اختاروا تركه ، جعلوه من سنن العادة ، وإن لم يكن منها ، حتى اختلط الأمر على العامة ، فلا يميزون بين ما هو دين ، وما هو دنيا ، وما هو من سنن العادة ، أو سنن العبادة .

ومثل هذا بالضبط : ما يجرى فى أمور البدع ؛ فما شاءوا منها : حرَّموا ، وما شاءوا منها أحلّوا ، وليس لهم فى هذا قانون مطَّرد ، إنما هو حب المخالفة ، والتنافس فى الغلوِّ والتطرف ، والتفانى فى إكراه الناس على الاقتداء بهم فى محاولات الشذوذ والتفرُّد باسم السنة .

فإذا ضربت مثلا فى البدع بجمع القرآن ، ثم بإدراجه بين دفتين ، ثم بنقط حروفه ، ثم بتشكيل كلماته ، ثم بترقيمه ، ثم ببيان مدنيه ومكيه ، مع أسماء سوره ، ثم بتقسيمه إلى أجزاء وأحزاب وأرباع ، ثم بالإشارة

إلى أنواع وقوفه ، وإلى مكان سجود التلاوة منه،إلى آخر هذه (المبتدعات) الإيجابية الأصلية فى صميم كتاب الله ، وهو أصل الإسلام ودستوره الخالد ، ثم إذا ذكرت : كيف تحرَّج أبو بكر من مجرد جمع القرآن ، وعده بدعة ، ثم أجازه بعد إلحاح عمر ﷺ .

لو عرضتَ هذا التاريخ فى مواطن الكلام على البدع : لذهبوا بك المذاهب ، وربما عدّوه من « المصالح المرسَلة » ، ومن ذا الذى « ابتدع » لفظ المصالح المرسلة ؟ ومن ذا الذى وضع قوانينها ؟ إنهم الناس ، فكيف يدافَع عن البدعة بالبدعة !؟

وهذا هو « الميكروفون » أدخل على الصلوات كلها ، وعلى خطب الجمعة ، ودروس الوعظ ، وتلاوة القرآن الخ ، فكيف جاز هذا ، وهو بدعة ؟

فالأمر عميق فسيحٌ متشعِّب ! نسأل اللهَ السلامة ، ولا علاج إلا بسماحة الإسلام ويسره ورفقه والتنزه من وباء دعوى احتكار الصواب ، وقذف جمهور المسلمين المخلصين بالجهل والخروج من دين الله .

* * *

السؤال الثامن

(س) لي سؤال فقهي أخير ، وهو : أنني أرى في مسجدكم هذا محرابًا ، ويقولون : إن المحاريب محرّمة في الإسلام ، فما رأيكم ؟

الجواب : قبل الرد على هذا السؤال أحب أن أصحّح خطأ شائعا ، انبنىَ عليه خطأ آخر ؛ فالخطأ لا يُنتِج إلا خطأ ، وأخيرا لا يَصِحّ إلا الصحيح .

فليس ما ترى في مسجدنا ، ولا في مساجد المسلمين كلهـا ما هو « المحراب » على صورته عند أهل الكتاب ، إن ما ترى إنما هو علامة اتجاه القبلة ، وهو ما تنطبق عليه قوانين « المصالح المرسلة » إنْ لم نقل إنّ لها أصلاً من عمل رسول الله ، بما كان يدل به على القبلة من العصا يغرسها أو الجِذع الذى كان يخطب عليه . إلخ .

فليس هو محرابا أبدا ، ويجب أن نسمى الأشياء بأسمائها ، حتى لا نضلّ الصواب والثواب .

هذا أولاً ، أما ثانيًا : فلن أتعرض لمدى صحة أحاديث النهى عن المحاريب ، أفرد لها السيوطى جزءًا ، ورد عليه علماءٌ مِن آخرهم الشيخ الصدِّيق الغُمّارى ردًا علميًا محكما .

لكننى سأفترض صحة الحديث (جدلا) ، وأعود بك إلى نصوص القرآن المجيد لنرى ، إن كان ما تراه في مساجدنا محرابًا فعليا ، ينطبق عليه النهى - على فرض صحة الأحاديث وعدم تأويلها - بعيدًا عن خلاف الفقهاء فيه .

المحراب في القرآن ، وعند أهل الكتاب ، شيء يدخل الناس فيه ، فيؤويهم ويردُّ العيونَ عنهم ، وفيه يتعبّدون ، وهو يتسـع لأكثر من شخص ، مع حاجياته ، وهو يسـتر مَن فيه عن أعين الناس ، وهو شيء يَخرج الإنسان من داخله ليتحدث إلى الناس في خارجه ، وهو شيء مسور مرتفع الخ ، كما ستوضحه النصوص القرآنية المحكمة فيما يأتى :

فالله تعالى يقول عن مريم : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾[1] فالمحراب هنا شيء يدخل الناس فيه ، ليصلّوا ، أو يتصلّوا بمن فيه وما فيه .

والله تعالى يقول عن زكريا ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم ﴾[2] « فالمحراب هنا شيء يخرج مَن فى داخله إلى من هم فى خارجه ليتحدّث اليهم » .

ويقول الله تعالى ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوّروا المحراب ﴾[3] فهو شيء مرتفع الجدران « يقفز » الناس من فوق سوره ليصلوا إلى داخله ، ومن هنا كان فزع داوود ، عندما لم يدخلوا عليه المحراب من بابه ، كما فى سورة « ص » .

ويقول الله تعالى عن زكريا أيضا : ﴿ فنادته الملائكة وهوَ قائم يصلى فى المحراب ﴾[4] فهو شيء يقوم القائم فى داخله للصلاة والتعبد .

فهل هذه الصورة القرآنية المفصّلة للمحراب ، تتحقق بأى شكل فى « القبلة » التى اتخذها المسلمون للدلالة على اتجاه الكعبة الشريفة ، مما يستفيد منه الخاص والعام ؟ فهو من المصالح الضرورية التى لا ترفضها قواعد الإسلام العامة ، وحسبك هذا فى الرد على هذه « الجزئية » التى جعلوها « كلةً » وأطلقوا الاسم على غير مسمّاه ، ولا ضرر فيها ولا ضرار .

على أن بعض الأئمة - كابن الهمام - يرى أنه كان لمسجد الرسول ﷺ فى عهد الرسول ﷺ محراب : أخذًا من حديث (وائل بن حُجر - بضم الحاء وسكون الجيم - عند البيهقى ، وفيه : « فدخل المحراب » قالوا : وهو أحق بالتعويل من حديث عبد المهيمن بن عباس ، الذى ينفى وجود المحراب فى مسجد الرسول ﷺ ، مع أنه هو نفسه روى - عند الطبرانى - من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وفيه « فلما

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٧ .

(٢) سورة مريم (عليها السلام) الآية : ١١ . (٣) سورة ص ، الآية : ٢١٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٢٩ .

بنى له محراب : تقدَّم إليه » فلعله أراد بحديث النفى ، كونها على خصوص صورة محاريب أهل الكتاب .

وبيان هذا البحث يُرجع فيه إلى تعليق الشيخ الغمّارى على رسالة السيوطى ، وإلى كتاب الشيخ عمر بن عبد الوهاب الجندى ، وإلى كلمة الشيخ الكوثرى ، فهى نصٌ فى هذا الموضوع وإن كان ما قلته فيه الكفاية .

أما أنها نوع من التشييد والزخرفة ، فقد جدّد عثمان ﷺ مسجد رسول الله وبناه « بالحجر الملون » وسقفَه « بخشب الساج » ، وجاء عمر بن عبد العزيز - على علمه وتقواه وورعه - فزاد فى المسجد وجدَّده وزيَّنه بالرخام والفسيفساء (عام ٨٧ هـ) والتابعون موجودون ، بل وبعض الصحابة ، مما جعل لهذا الموضوع مفهومًا إسلاميًا عمليا ، لا يختلف عليه عاقل ؛ فالممنوع من الزخرفة هو : ما يشغل الإنسان ، ويلهيه عن صلاته ، وهذا يختلف باختلاف الأعصار والأمصار ، وحضارة المجتمع .

فهل رأيتَ كيف أنَّ أكثر ما يُثار من هذه الجوانب ، زوبعة فى فنجان ، بل فى « كستبان » ، وأنه نفخ فى الرماد ، لا يعقب إلا التشويه .. والعمى ، والتيه ، والضياع .

وإخواننا هؤلاء ، يظنون أنهم وحدهم أهل العلم ، وأهل الجنة ، وأن الله أعطاهم حق التصرف فيها ، والوصاية عليها من دون البشر ، ومن لم يكن منهم من المسلمين : فالنار مأواه ، مع المجوس والصابئة . ولا قوة إلا بالله .

* * *

ﷺ ، والقران ينزل فيهم ، وهم (المنافقون) ، فهل معنى هذا أن جميع الصحابة كانوا منحرفين ، لوجود المنحرفين فيهم ؟ .

إن المنحرفين موجودون (وسيظلون) فى كل طائفة إلى يـوم القيـامة ، وهذه طبيعة التجمعات البشرية ، ومنها تجمعات المتمسلفة : مَن سبق ، ومَن لحق .

* * *

السؤال العاشر

س : هل زيارة القبور وثنيةٌ صوفية !؟

الجواب : كيف وقد أُمرنا بزيارتها ، وزارها رسول الله ﷺ والصحابة والأمة كلها من بعده ، وأجاز ﷺ للنساء زيارة القبور بشروطها ، بل وقد جاء القرآن بزيارة قبور الصالحين ؛ فإن الله عندما أنزل قوله تعالى ﴿ولا تُصَلِّ على أحـد منهم أى من المنـافقين - مات أبدًا ، ولا تقم على قبره﴾(١) كان معنى هذا أن يقوم الرسول على قبور الصالحين ، وقد فعل حتى مع المرأة التى كانت تَقُمُّ المسجد ٠

والممنوع شَدُّ الرحال إلى المساجد ، لا إلى القبور ،وفَرْقٌ كبير بين المساجد والقبور ، فتأمّل بعمق ٠ على أنه مما ثبت عن عمر « رضي الله عنه » أنه قال : « لو أن مسجد قباء فى طرف الدنيا لشددنا إليه الرحال » ، مما يؤكد أن حديث شد الرحال : ليس على إطلاقه ٠

وراجع ما كتبناه مفصَّلا فى شرح هذا الحديث الهام ، ففيه الجديد المفيد ٠

* * *

(١) سورة التوبة ، الآية : ٨٤ ٠

السؤال الحادى عشر

س : هل رسالة « المجموعة المباركة » ، طافحة بالأحاديث الكاذبة ؟

الجواب : نعم ، وهى من وضع أعداء الإسلام عمومًا ، وأعداء التصوف خصوصًا ، لأغراض فى غاية العمق والسواد ، ثم ان الاسم الرمزى الخرافى ، الذى جعلوه لمؤلف هذا الكتاب ، لا ذكر له فى تاريخ الإسلام ، ثم إنه لم يذكر فى هذا الكتاب ، كلمةً واحدة عن التصوف ، فكيف يحاسَب الصوفية عليه !؟

* * *

السؤال الثانى عشر

س : هل اتخاذ الشيخ وساطة شركية ؟

الجواب : هذا كذب على العلم ، وعلى الإسلام . نعم إمامُ الكلِّ رسول الله ﷺ . ولكن لماذا نتخذ الإمام فى الصلاة ؟

ولماذا نذهب إلى الخبراء فيما لا علم لنا به ؟

ولماذا نزل جبريل بالوحى على قلب رسول الله ﷺ ، وكان الله قادرًا أن يلهمه إياه إلهاما ؟

ولماذا أمرنا الله بالقدوة ، والأسوة فى القرآن ؟

وكيف واللهُ يقول : ﴿ الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾[1] ويقول تعالى للنبى الأعظم ﷺ ﴿ أولئك الذين هَدَى اللهُ فبهداهم اقتده ﴾[2] ؟ .

لا بد لكل علم مِن معلِّم .

مَن شك فى ذلك خالف الواقع ، والحسَّ ، والمعنى ، والمعقولَ ، والمنقولَ .

أتعرف : القراءة والكتابة ، وعلوم الرياضة ، والطب ، والفلك من غير معلم ؟ .

أتعرف أن تقرأ القرآن دون مُوَقِّف عليم ؟

أتعرف أن تتعلم لغة قوم دون خبير بصير ؟

أليس فى ذهاب موسى إلى الخضر أكبر دليل ! ؟

أليس الله يقول : ﴿ فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[3]

إذن هل هناك مهنة أو حرفة فى الدنيا تُنال من غير ممارس مجرب ، فاتخاذ الشيخ :عمل لا بد منه للسالك إلى الله ، حتى لا يتخذ إلهه هواه .

* * *

(١) الفرقان ، الآية : ٥٩ . (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩٠ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٧ .

السؤال الثالث عشر

(س) هل استحضارُ الشيخ عند الورْد شرْك ؟

الجواب : هل لو شعر الإنسان قلبيًّا ، بأن عليه حافظين ، كرامًا كاتبين في كل لحظة ، يكون قد أشرك ؟!

وهل ما يخطر على بال العبد من صور الملائكة والجن والعرش والتماثيل ، والأشخاص وغيرها في الصلاة ومختلف العبادات يعتبر شركًا خصوصًا إذا جاء ذكرها فيما يتلوه من القرآن ؟!

الأصل : أن المريد يبدأ دخول الحضرة الإلهية ، بتصورُّ مَن كان سببًا في صلته بالله ، وفاءً له ، وتبركًا به ، ثم هو يَفْنَى بعد هذا من ذهنه وتصوره بمجرد اندماجه في الذكر ، فهو نوع من الاستصحاب الروحي المؤقت ، لطرد الشيطان والخواطر الصارفة ، استعدادًا للقيام بحق الله ، والاستغراق في أنواره ، وهو ليس من الشروط الأكيدة في السلوك ، ولكنه نوع من العلاج ، ووسائل التصفية والتنقية ، وطرد الشيطان ، وبخاصة للمبتدئين .

فلا شِرْكَ ، ولا خوف من شرك ، بل هو التوحيد كل التوحيد .

* * *

السؤال الرابع عشر

« س » هل الناس متساوون عند الله ؟

ولماذا جعل الصوفية لرجالهم رتبًا خاصة !؟

الجواب : نعم يتساوون فى الحقوق والواجبات الإلهية ، ولكنهم يتفاوتون فى الأعمال ، ولكن : ﴿ لكل درجات مما عملوا ﴾(١) ﴿ ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ﴾ وليس إيمان أبى بكر كإيمان قاتل فى سجن طره ﴿ هل يستوى الأعمى والبصير ؟ ﴾ و ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾(٢) ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾(٣) ﴿ وما منّا إلا له مقام معلوم ﴾(٤) ﴿ لهم درجات عند الله ﴾(٥) ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾(٦) ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار !؟ ﴾(٧) .

ومن هنا كانت « الولاية » مراتب : طبعًا وشرعًا : « وما زاد الصوفيةُ إلا أنهم وضعوا لهذه المراتب أسماء للتعريف والتمييز » ، وأنت حر فى أن تأخذ أو تدَع ، ولكل طائفة اصطلاح ، وهذا اصطلاحهم الخاص ، لا يُجبِرون أحدًا عليه .

* * *

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٣٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

(٣) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

(٤) الصافات ، الآية : ١٦٤ .

(٥) آل عمران : ١٦٣ .

(٦) الأنعام الآية : ١٦٥ .

(٧) سورة ص ، الآية : ٢٨ .

السؤال الخامس عشر

« س » كيف تجول الأرواح فى السماء ، وجبريل كان يستفتح ومعه النبى ﷺ ؟! وما هو معنى الكشف الروحى ؟

الجواب : كان استفتاح جبريل من أجل أن معه الرسول ﷺ الذى عرج بجسده وروحه ، والجسدُ شىء غريبٌ على السماء ؛ فلا بد من الاستئذان له ، وإلا فالروح سماوية الأصل ،ووطنها الأول والأخير : السماء ، وبرزخ الأرواح الذى ذكره القرآن جزء من السماء[1] .

وللروح إدراكات كبرى إذا خَلَصَتْ من شوائب الظلمانية والجسدية الطينية ، وذلك ما يسمّونه : الكشف والشهود ، وفى الحديث « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله »[2] ونورُ الله لا يُحَدّ ، وفى القرآن ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾[3]وفيه ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾[4] وفيه ﴿ ففهمناها سليمان ﴾[5] فتدبَّر وتعمَّق فيما وراء الألفاظ .

غير أنه من المفيد أن تعرف أن الصوفية يريدون بالكشف: « خصوص المحسوسات » ، ويريدون بالشهود : « خصوص المساتير والغيبيات » ، ولكل مقامٍ رجال .

* * *

(١) راجع كتاب « الروح » لابن القيم .

(٢) لأن المؤمن إذا صفت مرآة قلبه كشف ما وراء الحجب .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٢٩ .

(٤) سورة التغابن ، الآية : ١١ .

(٥) سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ٧٩ .

السؤال السادس عشر

(س) هل احترام المريد لشيخه وثنية ؟

الجواب : كيف هذا ، والنبى ﷺ يقول : « **ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنــا حقه** »[1] وأدب الصــحابة مع النبى ﷺ هو أدب المريدين مع الأشياخ ، وقد أمر الله الأنبياء بتعظيم الآباء ، وأمر المأموم أن يتأخر عن الإمام ، فهل هذه وثنية ؟ وكانوا يقبّلون يد الرسول ﷺ ، ورجله (تأمل) كما هو ثابت فى الأحاديث الصحيحة ، وكانوا يحملون عنه حذاءه ورداءه ، ولا يتقدّمون عليه ، ولا يقدّمون بين يديه ، ويتبركون بآثاره (راجع الشمايل والخصائص) وآداب الصحابة ، وليس فى ذلك خصوصية ؛ فالأدب علم ، والتصوف أدب مع الله ومع الناس .

وهل جاء نص بعدم احترام الأشياخ أو الأولياء ؟

وهل كان سجود إخوة يوسف ليوسف عبادة ؟ أم كان احترامًا جاز فى شريعتهم ؟ .

فاحترام التابع للمتبوع ، والصغير للكبير : أصل إسلامى توحيدى لا خلاف عليه ، وإلا كان نفس الأدب ، وحسن الأخلاق شركًا - ألم تقرأ كيف كان أدب موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، وكيف كان فتى موسى (يوشع) يحمل عن موسى متاعه ، وكيف أمرنا الإسلام باتخاذ « الأمير » وطاعته ، مهما قلّ العدد .

صَحَّ أن اثنين من كبار الصحابة خرجا معًا إلى مكانٍ ما ، فقال أحدهما للآخر : « إما أن تكون أميرى ، أو أكون أميرك » .

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر ، وأبو يعلى عن أنس والعسكرى عن عبادة بن الصامت ، وهو حديث مرفوع .

وللحديث ألفاظ أخرى ورواة آخرون .

[راجع كشف الخفا]

قال : بل كن أميرى

قال : فاحمل عنى بردتى ومتاعى » .

شيئا من التفكير يرحمك الله ، لكن إذا انحرف الاحترام إلى التقديس : فشىء مرفوض : قولاً وحداً !! .

* * *

السؤال السابع عشر

س : لماذا لا يكون للمريد إلا شيخ واحد ؟

الجواب : هم لا يمنعون أن يتردد المريد على أى إنسان للتزود بالثقافة والعلم ، ولكنهم يمنعون أن يجمع المريد بين عدة وسائل للسلوك ؛ فإنه لا يجوز للمأموم أن يأتمَّ إلا بواحد فى الفرض الواحد ، ولا يجوز للمريض أن يتناول أدوية عدد من الأطباء فى وقت واحد ، والتربية شىء غير العلم ؛ فالعلم : مطالب تأتلف ، والسلوك مشارب تختلفٍ ، فهو أبوة روحياً ، ولا يمكن أن يكون للإنسان إلا أب واحد ، وحبٌ الأب لا يمنع حب الأعمام والأخوال وتوقيرهم ·

فإذا توفى الشيخ قبل نضوج المريد ، جاز للمريد أن يتخذ مَن يُتم به رحلته ، وإذا ثبت أن الشيخ جاهل ، أو منحرف ، تعين أن يبحث المريد عن سواه · فإذا تم للمريد مقامه ، جاز أن يتلقى للتبرك عن عدد من الأشياخ ، دون أن يدع طريقه الأصيل الذى كان سبب الفتح بحال من الأحوال ؛ كشأن كبار الرجال ، سلفًا وخلفًا ، وكما هو مسجل فى « أثباتهم » وإجازاتهم ·

* * *

السؤال الثامن عشر

(س) ما الفرق بين الاعتراض على الشيخ ، والاستفسار ، أو الاستفتاء ؟

الجواب : اعتراض المريد على الشيخ : علامةُ نقص الثقة ، وفقدان المحبة ، إذا كان الشيخ مستكملا لشروط الداعية المربِّى .

وهناك فرق بين أن يستفسر المريد ، وأن يستفهم - والاستفهام حقُّه الطبيعى المتعين - وبين أن يتعالم ويعترض وينكر بلا هدى ولا خلق ، وهذا ما لا يستقيم مع أدب التربية والسلوك والتلقِّى وحقوق الأبوة الروْحية .

المعترض : منكر ، والمنكر متَحَدٍّ ، فلا ثقة له فى شيخه . وبهذا فسدت تبعيته ، كما تفسد مأمومية المأموم إذا فقد الثقة فى طهارة إمامه ، والعكس غير صحيح .

وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يستفتون الرسول ﷺ ويستفهمون .

والمريد إما على قدم أبى بكر ، مع الرسول ﷺ - وهو قدم إسماعيل مع أبيه - أى : ثقة ، وتصديق ، وتسليم مطلق ، وإما على قدم عمر ؛ إيمان وثقة وحب للمعرفة بالسؤال المهذب ، وكلاهما على خير .

أما الصنف الثالث ، فلا خير فيه ، ولا أثر لسيره وسلوكه ، بل هو سير وسلوك عكسى هابط .

ولدينا مَثل عملى ساقه القرآن فى صحبة موسى للعبد الصالح

عليهما سلام الله ، أىّ أدب فى الطلب ، تأمل قوله : ﴿ هل أتبعك على أن تُعلّمنِ مما عُلّمت رشدا ﴾[1] ولقد أنكر موسى أشياء ، ولكن بأدب ، ثم رجع يسترضى معلّمه معتذرا ، وهذه أدنى مراتب الصحبة فى الله .

أما الاعتراض ، والتعالم والإنكار بلا تحقيق ، فمقام إبليس من رب العالمين ، ومن أقوالهم : « مَن سُلب الثقةَ فى شيخه ، سُلب المددَ من ربه » .

* * *

(١) سورة الكهف ، الآية : ٦٦ .

السؤال التاسع عشر

(س) هل تأذن لى بسؤال آخر فى الفقه أيضا ؟ سمعتكم هنا تجهرون بالبسملة فى قراءة الفاتحة ، وقد رأيت بعضكم يمنعها بعنف شديد ، وبعضكم على العكس ؟؟

الجواب : الجهر أو الإسرار بالبسملة من مسائل الفروع المختلف فيها ، وعلامَ العنف والشدة ! وقد نقل الإمام الشوكانى فى « نيل الأوطار » إجماع الأمة على عدم تأثيم من أثبتها ، ولا من نفاها ، فلكل منهما دليله ، وكلاهما على صواب ؟! .

ويقول الإمام الحازمى فى « نصب الراية » : مَن فعْلها أو تركها فقد أتى بالسنة .

قلنا : وذلك لكثرة أحاديث النفى والإثبات ، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ : كان يجهر بها مرة ، ويُسر بها مرة أخرى ، وهو اختيار الشيخ خطاب فى « الدين الخالص » واختيار كثير من السلف ، وهو ما يجب ترجيحه والأخذ به .

وعندنا أن الإثبات أحوَط ، ودليله أقوى وأصحّ ، ويؤتَى بها للخروج من الخلاف عند أهل الفقه ، كما هو مقرر فى علم الأصول ، وإليك بعض التفاصيل :

فقد روى أحمد والنسائى بسند صحيح ، عن أنس أنهم كانوا لا يجهرون بالبسملة (ومعناها أنهم كانوا يُسِرّون بها) فقد كان أنس يصلى قريبا من رسول الله ﷺ فيسمعه يُسِرّ بها . على غير حديث عبد الله بن مغفل ، فإنه كان يصلى فى الصفوف الأخرى ، فلا يسمع ما يسمع أنس ، ولهذا نفى الإتيان بالبسملة ، وأخذ بقوله المالكية فى الفرض فقط ، وخيّروا المصلى فى النافلة أن يأتى بها ، أو يدَع (وهنا نظر) .

ولكن الأحناف قالوا : يُسِرُّ بالبسملة فى السرية والجهرية ، وأما مذهب الشافعية والحنابلة وأبى ثور ، وأبى عبيد ، فهو الجهر بالبسملة وجوبًا فى أول الفاتحة ، وهو مذهب الليث ، وإسحاق ، وابن المبارك ، وأحمد - فى إحدى روايتيه - لما أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند رجاله ثقات عنه ﷺ : « الحمد لله سبعُ آيات (أى سورة الحمدَ لله) إحداهن : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وأخرج الدارقطنى بسند رجاله ثقات ، عنه ﷺ : « إذا قرأتم الحمد لله (أى سورة الحمد لله) فاقرءوا بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وفى حديث صححه الحاكم والذهبى : أن سعيد بن جبير سأل ابنَ عباس : « هل البسملة آية من الفاتحة ؟ قال : نعم » .

وأخرج الدارقطنى أيضًا أنه ﷺ :كان يجهر بـ« بسم الله الرحمن الرحيم » .

وعند بعضهم أنها آية مستقلة ، يُستفتح بها فى كل سورة (عدا التوبة) .

ورأىُ الشافعية أن البسملة آية من كل سورة ، وهو قول ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وابن المبارك ، الذى يقول : مَن ترك البسملة « أى فى تلاوة القرآن » فقد ترك مائة وثلاثة عشر آية » .

قلنا : وهى ثابتة بالتواتر ، وإثبات الصحابة لها فى المصحف أعظم دليل على أنها آية من كل سورة ، أو قبلِ كل سورة ، ويؤيده حديث مسلم وأبى داود ، عنه ﷺ :« أنزلت علىّ آنفا سورة ، فقرأ : « إنا أعطيناك الكوثر مبتدءًا ببسم الله الرحمن الرحيم » . وبهذا أخذ أمثال : قالون والكسائى ، وابن كثير ، وعاصم من أصحاب القراءات .

وقد نقل الفخر الرازى فى تفسيره أن على بن أبى طالب كان يجهر بالبسملة فى جميع الصلوات ، قال : (ومن اقتدى بعلى فقد اهتدى) .

وأخرج الحاكم ، وصححه الذهبى : أن النبى ﷺ كان لا يعرف ختم السورة ، وبداية الأخرى حتى تنزل (بسم الله الرحمن الرحيم)

وحسبك قوله ﷺ : « كل أمر ذى بال (أهمية) لا يُبدأ فيه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) فهو أبتر ، أو أقطع ، أو أجذم » . (روايات)[1] .

وهل هناك أمر ذى بال أهم من تلاوة القرآن ، وبخاصة فى الصلاة ؟

إن الكلام فى هذا الجانب طويل ، وفى حاجة إلى تفصيل أكثر وتنظير ، ويكفى أن تعرف أن الإثبات والنفى كلاهما جائز ، ولكن الإثبات آكد وأقوى وأحوط وأرضى ، كما بيّناه آنفا ، فلا داعى للعنف والتأثيم ، إذا تطهرنا من أوضار التعصب .

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقى والرُّهاوى فى الاربعين .

السؤال العشرون

س : سؤال آخر : ما رأيكم فى المسح على العمامة والقلنسوة ؟!

الجواب : المسح على العمامة وحدها ، أو مع الناصية : أجازه ابن حنبل ، وأبو ثور ، والأوزاعى ، والثورى ، والقاسم بن محمد ، وغيرهم : أخذوا بحديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ مسح ناصيته مع العمامة

وفى بعض الروايات : « مسح على العمامة وحدها » ، ثم ماثَلوا ذلك بالمسح على الخفين .

وخالفهم فى ذلك - قائلاً بعدم الجواز - : أبو حنيفة ، والشافعى ، ومالك .

والرأىُ : أنه لا يُصار إلى ذلك إلا عند الضرورة ؛ فالمسح على العمامة « ومثلها القلنسوة والطربوش » رخصة لا تفيد معنى الالتزام ولا الاستمرار - فيما نرجِّح - وإنما هى للضرورة ، والله أعلم .

* * *

السؤال الحادى والعشرون

س : رأيتكم تختمون الصلاة سراً مرة ، وجهرا مرة أخرى فى المغرب والعشاء ، فما رأيكم فى هذا ، وقد منع بعضهم الختام الجهرى ؟

الجواب : نرى أن هذا وهذا جائز ، كلٌ فى موضعه .

أما الجهر ، فقد أخرج السبعة « وماذا تريد بعد السبعة الصحاح » عن ابن عباس « أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة ، كان على عهد النبى ﷺ » . كذلك أخرج أحمد ومسلم ، والشافعى ، وآخرون ، عن ابن الزبير رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى (لاحظ قوله صوته الأعلى) : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون » مع خلاف يسير فى ألفاظ الروايات ، كما صح فى حديث أبى داود . أنهم كانوا يعرفون الفراغ من الصلاة بما يسمعون من الذكر فى المسجد .

فهذه الأحاديث واضحة صريحة فى جواز رفع الصوت بختام الصلاة ، وأنه هو السنة .

وأما القول بالمخافتة : فهو اجتهاد واستحسان ، كما قال الشافعى فى « الأم » : « أختار للإمام والمأموم أن يذكرا الله بعد الانصراف من الصلاة ، ويخفيان الذكر .. » الخ ، فالإسرار عنده اختيار شخصى ، ويفسره قول النووى : قال أصحابنا « إن الذكر والدعاء بعد الصلاة يُستحب أن يُسرَّ بهما » فهو مجرد استحباب واختيار : أى اجتهاد خاص ؛ لعدم ورود النص المحكم بالنهى عن رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة تحديداً ، **بل الجهر هو السنة الصريحة كما رأيت ، ولم يقع لنا أن إماماً من الأربعة حكم بأن هذا حرام صريح ، أو منسوخ بنص محكم ، والنص لا يُنسخ بالاجتهاد .**

أما القول بالتشويش على المصلِّين ونحوهم ، فإننا نرى الواعظ

والمدرس يرفع صوته بالقول فى المسجد بين الصلوات ، وفى حضور المصلين ، ولا ينكر أحد عليه أو يمنعه ، فإذا جاز هذا هنا ، فقد جاز هذا هناك ، لوحدة الحكم والسبب ·

وقد كان رسول الله ﷺ يتحدث بأمور الدين فى المسجد ، ويعلِّم الناس ، ويحفِّظهم القرآن ، فيتلوه ويتلون بعده ، حتى يحفظوه · كما كان يقضى فى الخصومات ، ويُجهِّز السرايا والبعوث ، ويوصيهم ، ويستشير أصحابه ، ويعقد ألوية الغزو ، ويعقد الزواج بالمسجد ، وكان يقابل الوفود بقَضِّها وقضيضها ، ويستمع لخطبائها ، ويرد عليهم : جهراً بالمسجد ، والناسُ تصلِّى بين يديه !!

وقد كان ﷺ يستمع للشعراء فى المسجد ويجيزهم ، وكان لشاعره حسان بن ثابت منبرٌ فى المسجد يَرْقَى عليه ويُلْقِى قصائده بأعلى صوته الخ ·· الخ ·

أما القول بأن الرسول ﷺ كان يجهر ليعلِّم الناس ، ثم عدل عن الجهر ، فقول لم يقم عليه دليل علمى حاسم ·

ومع هذا فنحن نلاحظ الظروف والمناسبات ، فنجهرِ حين نرى فى الجهر إحياءً للسنة وتعليمًا للناس ، وتشجيعًا لهم ، ونُسِر حين نرى فى السِرِّ خيراً لا بد منه ·

ثم متابعةً لمن اختار الإسرار ، فلا اعتراض على جَهْرِ مَن جَهَر ، ولا على إسرار من أسرَّ ؛ فلكل طرف منهما دليله ومناسبته ·

ومن الإسلام وضعُ كُلِّ شىء فى محله ، ونبذ التعصب المقيت ، ودعاوى احتكار الصواب ، والوصاية على الدين ، وتأثيم أهل القبلة وتجريمهم بلا كتاب صريح ، ولا سنة صحيحة ، ولا اجتهاد مستنير ، والله المستعان ·

نقول هذا ، ولا ندَّعى العصمة ، ولا احتكار الصواب ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ ونستغفر الله ونتوب إليه ·

* * *

الباب الرابع

خطاب صوفى جامع[1]

يا ولدى :

سألتنى عن التصوف الحق ، وها أنذا - بإذن الله - أكتب اليك شيئا مما يحضرنى من « هوامشه » وأوجهك إلى بعض آفاق مشارفه ، لتتعرف على بعض حقائقه ، فأنقل إليك بعض ما قال رجاله ، وفى بعض ما بلغنى إليه حاله ، وما كان من فيض الحق جل جلاله . وقد يفوتنى التنسيق والتزويق ، ولكننى أسأل الله ألاَّ يفوتنى التحقيق والتوفيق .

« اللهم إنى أعوذ بك أن أتكلف ما لا أُحسن ، أو أقول ما لا أعلم ، أو أمارى فى حق أعتقده ، أو أجادل عن باطل أنتقده ، أو أتخذ العلم صناعة ، أو الدين بضاعة ، أو أطلب الدنيا بنسيان رب الدنيا ، أو أعمل للأخرة رياء وزورا » .

يا ولدى :

قالوا : التصوف العلمى : تجربةٌ تصل بك إلى التذوق والصفاء والمشاهدة والوصول إلى سر الذات ، والخلافة على الأرض ، وسبيله : العلم والعبادة ، فلا يغنى عنك فيها سواك ؛ فإنه لا يمكن أن يتذوق لك منها غيرك ، كما لا يمكن أن ترَى بعين رجل آخر .

فهل تستطيع أن تعرف طعم « التفاح مثلا » دون أن تمضغه بالفعل ؟ وهل يكفى ان تنظر إلى العسل ، أو أن تعرف مكوناته لتتمتع بحلاوته ، دون أن يحتويه الفم أو يعركه اللسان ؟

وهل يمكن أن يتحقق الشبع ، أو ينطفىء العطش بالتصور والخيال دون تناول الطعام والشراب ، فعلاً وواقعًا ! ؟ طبعًا : لا .

وكذلك لا يغنى فى هذه التجربة مجرد العلم . ولا تُوصِّل إليها

---

(١) هذا الخطاب الذى ستقرؤه أوصيت به أحد أبنائى فى الطريق وكتبته هنا لعل الله تبارك وتعالى ينفع به .

دروب الفلسفة ؛ فالعلم والفلسفة أعمال عقلية ، وهذه التجربة من الأعمال القلبية الوجدانية ، وشتان ما بينهما ، غير أن التعبيرات الصوفية ، إذا عولجت بالإحساس والتعمق ، والمعاناة والتذوق ، كانت قادرة على تغيير الباطن الذى به يتغير الظاهر ، فيولَدُ الإنسان ولادةً جديدة ، كلها إشراق وحب وبركة وإنتاج « هكذا قال الشيوخ » !

أما مجرد قراءة كتب التصوف بلا معاناه ، فهذه متعة ذهنية وثقافة عقلية ، وقد تشارك فيها النفسُ الأمّارة بالسوء ، فتكون طريقًا إلى الضلالة طرداً أو عكسًا .

أما المِنح الروحية ، والإشراقات القلبية ، فهى نتيجة الجهود والأعمال ؛ فالصوفية أربابُ أحوال ، لا أصحابَ أقوال ، ولم ينل المشاهدةَ مَن تركَ المجاهدة .

يا ولدى :

إن التصوف خدمةٌ تتكيف بحاجة كل عصر ، وكل إنسان ، وكل وطن ؛ فهى تجسيد شامل لعملية الاستخلاف على الأرض ، ثم إن الهداية أيضا : جهد ومعاناة ، والشيخ دليل فقط ؛ فمن لم يَسْعَ لم يصل ، ومن لم يلتمس المعارج ، لا يتسامى ولا يرتقى . ومن لم يتحرك لم ينتقل ، ومن اعتمد على ما عنده وحده اغترَّ ، فتاهَ وضلَّ .

وفى ذلك أقول :

يقول : هل اتخاذُ الشيـ ـخ محتومٌ على القاصد ؟
فقلتُ : وهل تَرَبَّى قَـ ـط مولودٌ بلا والد ؟
وهل يتْمُ اليتيم كفا ءٌ فاستغنى عن الرافد ؟ ؟
وهل أبصرتَ مكفو فاً ولا يحتاج للقائد
وهل عِلمٌ ، وهل فَـ ـنٌّ بغير المرشد الراشد
وكيفَ يسير فى الصحـ ـرا غريبٌ ؟ أعزلٌ وافد ؟
وبابُ الله مفتوحٌ ولكنْ من هو الرائد ؟
تأمَّلْ ما أتى « موسى » وقصتَّه مع العابد
تأمل بعثةَ « الهادى » ففيها الشاهد الخالد

يا ولدى

إنَّ نسبَك إلى الله : أصحُّ مِن نسبك إلى أبيك · ثم إنه من استأذن على الله أذن له ، ومن قرع بابه تعالى أدخله ، ونحن إنما نشير إلى الحقيقة ، ونبيِّن السبيل ، ونَدَعُ المريدَ الصادق ليصل إلى غاية الطريق بجهده ، فليس شيخُكَ من سمعتَ منه ،ولكن شيخك من أخذت عنه ، ومن جاهد : عدل ، ومن اجتهد : وصل ·

يا ولدى :

الشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة جاءت بتعريف الحق ·

فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده ·

ثم إن الشريعةَ قيامٌ بما أمر به وبَصّر ،والحقيقةُ شهودٌ لما قضَى وقدَّر ·

وهذا رسول الله ﷺ ، والشريعةُ أقواله والطريقةُ أفعاله ، والحقيقة أحواله ·

فشريعةٌ بلا حقيقة : عاطلة ، وحقيقةٌ بِلا شريعة : باطلة ، ولهذا قالوا : من تَشَرَّع ولم يتحقق فقد تعوَّق ، أو تفسَّق ، ومن تحقق ولم يتشرَّع فقد تهرطق ، أو تزندق » ·

واعلم يا ولدي أنَّ الشريعة ليست إلا الحقيقة ، والحقيقة ليست إلا الشريعة ، فهما شيءٌ واحد ، لا يَتِمُّ أحدُ جزأيه إلا بالآخر ، وقد جمع الحق تعالى بينهما ، فمحال أن يُفرِّق إنسانٌ ما جمع الله ·

ثم تأمل يا ولدى قولك « لا إله إلا الله » هذه حقيقة ، « محمد رسول الله » هذه شريعة ·

فلو فرَّق بينهما أحدٌ هلك ، فإن من ردَّ الحقيقة : أشرك ، ومن ردَّ الشريعة : ألحد[1] ·

ثم تأمل قوله تعالى « إياك نعبد » تجد الشريعة ، « وإياك نستعين » تجد الحقيقة ، هما شيء واحد يستحيل طرح أحد جزئيه · عبادة العبد : ظاهر الأمر ، وإعانة الله : باطنه ، ولا بد لكل ظاهر من باطن · كالروح فى الجسد ، والماء فى العود ·

---

(١) والمشرك ، والملحد : كافران ·

الحقيقة من الشريعة ، كالثمرة من الشجرة ، والأريج من الزهرة ، والحرارة من الجمرة ، فلا بد من هذه لتلك ، فاستحال قيام حقيقة بغير شريعة .

يا ولدى :

انظر بعين عقلك وقلبك إلى هذا الدعاء ، الذى يناجى به أحد العارفين من أشياخنا ربّه فيقول :

« إلهى : إذا طلبتُ منك الدنيا فقد طلبتُ غيرك[1] ، وإذا سألتُك ما ضمنتَ لى ، فقد اتهمتُك[2] ، وإنْ سكنَ قلبى إلى غيرك ، فقد أشركتُ بك[3]!!

جلّتْ أوصافُك عن الحدوث ، فكيف أكون معك ؟[4]

تنزهتْ ذاتُكَ من العلل ، فكيف أكون قريبًا بذاتى منك ؟ ! وتعاليتَ عن الأغيار ، فكيف يكون قوامى بغيرك » ؟!

إنه كلام كأنه صدى من روح القدُس ، وكأنما اقتبسه الشيخ من ألحان الذين يحملون العرش ، ومَن حوله ، ومن تسابيح الأرواح المهيمة بآفاق الملأ الأعلى ، كلام فيه رائحة مولانا رسول الله ﷺ ، وأقباس من أضواء سدرة المنتهى ، وملامح من صدى الحقيقة والشريعة .

---

(١) لأن الدنيا كلها ملك لله تعالى ، فكيف يترك المالك ويطلب المملوك ؟! ألم تر أن الله تعالى قال للدنيا : « من خدمنى فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه » .

(٢) ما ضمنه الله تعالى أشياء كثيرة ، منها الرزق،وقد أقسم الله تعالى أنه حق ، فقال : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ الذاريات : ٢٣ وقد سمعها عربى ، فقال : « من أغضب رب العزة حتى أقسم ؟ » .

(٣) ومن سكن قلبه إلى غير الله فقد أشرك قال تعالى : ﴿ قل أغيرَ الله أبغى ربًا وهو رب كل شىء ﴾ الأنعام ، الآية : ١٦٤ .

(٤) لأن الحادث لا يكون معه إلا حادث مثله ، والمعية التى يقصدها الشيخ هنا المعية القلبية .

إن التصوف – عندنا – هو « علم المعرفة » ، فهو تصحيح الإسلام ، وتحقيق الإيمان ، وتأكيد الإحسان[1] .

ومن هنا كان واجبا : لا يمكن تحصيله ، بمجرد القراءة ، ويبدو ذلك واضحًا فى هؤلاء الذين يدرسون التصوف علمًا ، ولا يمارسونه عملا !! وهم يحملون أعلى الألقاب العلمية ، وكان يسميهم والدى « عربات النقل البشرية » أو « سُعاة بريد المعرفة » . إنما التصوف رفعُ الأستار عن أسرار الكونيات ، لإدراك أنوار شموس الحقائق ، فلا بد – مع العلم – من المعاناة والممارسة .

والتصوف : التقوى ، والتصوف : التزكية ، وهما مقام يجمع الخوف والرجاء ، وينهض بالعقيدة والخُلُق ، وبه تتحقق إنسانية الإنسان ، وإنه ما من آية فى القرآن إلا وهى تربط الدنيا بالآخرة ، وتجعلها وسيلةً إليها « من باب التقوى وطريق التزكية » .

ألم يقل الله ﴿ قد أفلح مَن تزكَّى ﴾ و﴿ قد أفلح من زكّاها ﴾ . ألم يكن من سر الرسالات « التزكية » : ﴿ يعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ .

نعم : التصوف : أدب ، فالعقيدة : أدب : والعبادة ، أدب ، والمعاملة : أدب .

ولقد كان شيخنا الوالد يكثر أن يقول : « اللهم علِّمنا الأدب » و« من تعلَّم الأدبَ : بلغ الأرب »

وهنا يصل العبد إلى رتبة « الربّانية » بالعلم والدرس والممارسة : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ .

يا ولدى : الصوفى أكثر من فقيه ؛ فالفقيه : وقفَ عند الأقوال[1] .

---

(١) هى مراتب الحديث المعروف الذى ذكر فيه رسول الله ﷺ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ، وهو حديث معروف مشهور بين أهل العلم .

(١) قال ابن كثير رحمه الله تبارك وتعالى ، وهو أحد تلاميذ ابن تيمية رحمه الله تبارك وتعالى : عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ الآية : ١٨ من سورة المائدة ، وقال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : =

والصوفى أكثر من عابد ؛ إذ العابد وقف عند الأعمال ، أما هو فقد جمع بينهما ، فأثمر : الأحوال ٠

والصوفى أكثر من زاهد ؛ إذ الزاهد فى الدنيا ، زاهد فى لا شىء ٠

أما الصوفى فلا يزهد إلا فيما يحجبه عن الله ، وبهذا يجعل الدنيا فى يده ، لا فى قلبه ٠

وهكذا يصبح التصوف : فرضَ عين ؛ لأنه : طَلَبُ الكمال ، وما من مخلوق إلا وفيه نقصٌ يجب استكماله ، وبالتالى كان كل علم يمكن الاستغناء عنه ، إلا التصوف ؛ لأن موضوعه : الذات ، والروح ، وعلاقة الوجود بالوجود ، وارتباط الغيب بالشهادة ، والملك بالملكوت ، وكل علم بعد هذا فهو : نافلة ٠

جاء شاب إلى مرشد صوفى ، فقال له : يا ولدى : ان كنت تريد الدنيا والجنة فعليك بفقيه ، وان كنت تريد رب الدنيا ورب الجنة ، فهلم إلينا » ٠

نعم ، من وجد الله ، فما فقد شيئا « وإن فقد » ٠

ومن فقد الله ، فما وجد شيئا « وإن وجد » ؛ فشئون الدنيا كلها كشئون الآخرة كلها ؛ « كل من عند الله ! » ٠

يا ولدى :

البشر : مَدَرٌ : لا يخلو من كدر ٠ فمن نظر إلى الخلق : هلك ، ومن نظر إلى الحق : سلك وملك ٠

ولكن عليك بخلوص النية من قيود المقامات ، وأغلال الأحوال ، وعبادة الآمال ٠

ثم إنه ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا !

= أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يردّ عليه ٠ فتلا عليه الصوفى هذه الآية ، ﴿ قل فَلِمَ يعذّبكم بذنوبكم ﴾ ، وهذا الذى قاله : حسن ، إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، فراجعه هناك لتستفيد ٠

يا ولدى : إذا قيل : إن التصوف من الصفاء ، فقد أصبح اسم التصوف أعظم من أن يكون له جنس يشتق منه ؛ لأن الشرط فى الاشتقاق التجانس ، والموجودات كلها : ضد الصفاء ، إنها كدر « إلا ما كان لله » ولا يشتق الشيء من ضده .

ثم إن « الصوفى » هو صاحب الوصول ، « والمتصوف » صاحب الأصول ، والمستصوق « المتمصوف » صاحب الفضول ، وإذا رضى المحبوب : كشف المحجوب .

والتصوف : فناء صفة العبد ببقاء صفة المعبود ومن هنا كان الصوفى هو الذى لا يَملكُ ولا يُملَك ، أى لا يملك نفسه ؛ لأنه ملك لله ، وبهذا لا يملكه غيره من مال أو جاه ، أو بشر ، ثم إن صحة الملكية تكون للموجود ، والصوفى فى حب ربه مفقود .

والمبتدىء فى الصوفية يرى نفسه ، ولكن : يراها ناقصة ، فهى – مع هذا – حجاب بينه وبين الله .

أما المنتهى ، فقد غضَّ بصره عن نفسه؛ فلا يراها بالكلية ؛ لأنه يرى قيُّومها الموجود الحق لا سواه ، وما لا قيّومية له من نفسه فهو : عدم مجسد .

يا ولدى : الصوفى قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، وقائم بنفسه على من يليه ، وهذه القوامة هى : التحقق بالتصوف الرفيع : ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾[1] .

والصوفى يقيم أمر الخلق فى مقامه ، ويقيم أمر الحق فى مقامه ، فيُظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويقوم بواجب وقته كأفضل ما يقوم رجل ، وبه يستقيم عاتق الميزان بروح الربانية .

إن الله أمرنا بالتصوف ، فهو يقول ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[2] .

والربانية عندنا هى « التصوف » ، فهى فى الآية علم ودراسة ، ومقتضى ذلك : العمل ، والعمل الصحيح .

(1) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(2) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

فالتصوف هو الربانية : وهو التقوى ، وهو التزكية ، وثلاثتها شيء واحد ، لا بد لبعضه من بعض ، فلا ربانية بلا تقوى ، ولا تقوى بلا تزكية ·

وتستطيع أن تُسَمّي ذلك جميعًا « البر » و ﴿لكن البر من اتقى ﴾ فاقرأ آيات من « سورة البقرة » وغيرها[1] ، وسترى أن جِماع ذلك ومِلاكه هو « الخُلُقُ » ·

فالتصوف خُلُقٌ · « من زاد عليك فى الخلق : زاد عليك فى التصوف » · وبالتالى زاد عليك فى الإنسانية ، فنفع وانتفع ، وأدّى رسالة البشرية بروح سماوية عليه ·

وهكذا تشرق لك بعض معانى قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] فما كان من عظمةٍ فى شئون الدنيا والدين ، فإنما هى أثر للخُلُق العظيم ·

يا ولدى : ليس للشيطان على الصوفى الصادق سبيل ؛ لأنه تحقق بالعبودية المحضة ، فدخل فى قدس ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[3] ·

وقد عرف الشيطان هذا واعترف به ، فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين · إلاّ عبادك منهم المخلَصين ﴾[4] وقال ﴿ لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[5] ومن ثم كانت العبودية أعلى مراتب القرب: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾[6] و﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ﴾[7] · و﴿ أوحى إلى عبده ﴾[8] ﴿ نِعمَ العبد ﴾[9] ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه ﴾[10] ·

واعلم « يا ولدى » وعلّم الناس : أن التصوف الحق مقيّد بأحكام

---

(١) الآية : ١٧٧ و ١٨٩ و ٩٢ آل عمران و ٢ سورة المائدة والمجادلة : ٩٠ ، والبقرة : ٤٤ ·
(٢) سورة القلم ، الآية : ٤ ·
(٣) سورة الحجر ، الآية : ٤٣ ·
(٤) سورة ص : الآيتان : ٨٢ و ٨٣
(٥) سورة الحِجر ، الآية : ٣٩ و ٤٠ ·
(٦) أول سورة الإسراء ·
(٧) أول سورة الفرقان ·
(٨) سورة النجم ، الآية : ١٠ ·
(٩) سورة ص : الآية : ٣٠ ·
(١٠) سورة الزخرف ، الآية : ٥٩

الكتاب والسنة ، على أساس العزيمة ، وحذار من الصيرورة إلى الرخصة ، إلا في حَدِّها المحدود ؛ فالتصوف - من حيث هو - علم وعمل ، وخُلق ، وعبادة ، وجهاد ، ودعوة ، هو أصل مؤصل مما جاء به الوحي ، وحثت عليه الشريعة كما رأيت ،فهو كما قلنا « طلب الكمال » · وكل امرىء - مهما يكن شأنه - فيه وجه ، أو وجوه من النقص ، وبهذا يصبح التصوف واجبا عينيا ، لا عذر لأحد معه ·

« هذا هو تصوفنا » وهو علم فقه المعرفة ، ولا شأن لنا بتصوف الآخرين » وكل امرىء بما كسب رهين » ·

وهكذا يكون الصوفى ، هو « المسلم النموذجى » تمثيلا للإنسانية الرفيعة ، واندماجًا فى موكب الحياة الزاخر بالجد وبالمجد ، والعمل الروحى ، والعمل الحضارى الخالد

يعيش الصوفى : بدنٌ مع الخلق ، وروحٌ مع الحق ، الفرق فى لسانه ، والجمع مع جنانه[1] ، وهو يعلم أن العمل مع الغفلةِ خيرٌ من الغفلة عن العمل !!

يا ولدى : التصوفُ دعوةُ « الحب » الذى فقده الناس ، ففقدوا الحقيقة الإنسانية فى الأجساد البشرية ·

والحب هو : الخصيصة المميِّزة للسالك الصوفى ؛ فهو يحب الله وبالتالى : يحب خلق الله ، فهو يحبهم بحب ربهم ، وهو بحكم حبه لهم : يسعى فى خيرهم وبرهم ·

وتصور يا ولدى مجتمعًا يحكمه « الحب ، والسلام ، والتسامح ، والتيسير ، واللين ، والتعبد ، والتعاطف ، والشرف ، والإيثار ، وتحرى معالى الأمور ؛ كيف يكون أفراده ؟ وكيف تمضى حضارته ؟!

إن العنف ، والقسوة ، والقهر ، والتعالى ، والخبث ، والتعالى ، والبذاءة ، والتعالم ، والاندفاع ، وأذى الناس ، أقذار لا يعرفها التصوف ·

واسمع الآن الشاعر الصوفى يحدو على شاطئ الحب قائلا :

رأى المجنونُ فى الصحراء كلبًا ... فمــدَّ له من الإحســان ذيلا !

(١) الجنان : بفتح الجيم : القلب ·

فلامـــوه على ما كان منه وقالوا : كم أنلتَ الكلـــبَ نيلا ؟
فقال : دعـــوا الملامةَ إنَّ عيني رأتْـــه ليـــلةً في حيٍّ « ليلَى » !!

يا ولدى : يقول السادة رضى الله عنهم : سر الحقيقة ظاهر ، وعلم المعرفة منصوب ، وباب الوصول مفتوح ، وما حجبكم إلا رؤية أنفسكم ، فعشش فيها الكبر ، وباض وأفرخ !! والكبر ميراث إبليس .

وهم يقولون ﷺ : الطريق واضح ، والدليلُ لائح ، والداعى أسمعَ ، فأقنع وأمتع . وما التحير بعد ذلك إلا من غفلة النفس ، وغلبة الهوى ، واعتقاد الفضل على السِّوى .

يا ولدى : لقد كان التصوف ثورةً على الترف والاستعجام والانحلال ، واللا مبالاة .

فإذا دخلته المغالاة ، فتلك طبيعةُ الأشياء ، وهذه قصة الصحابة الذين أرادوا أن يصوموا بلا فطر ، وأن يعيشوا على الطعام الرمزى ، وأن يتركوا النساء والأولاد ، وأن يَصلوا الليل والنهار : تعبدًا وانقطاعا عن الحياة ، فنهاهم الرسول ﷺ وأرشدهم إلى الوسـطية والاعتدال[1] : **﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾[2] .**

كان ذلك والوحىُ ينزل ، والرسول ﷺ حى ، فإذا داخل التصوف الغلاة والمتنطعون ، واستبدلوا حكم إحياء النفس بقتل النفس ، أو اختاروا الخبيث على الطيب ، فليس هذا عيبا فى التصوف نفسه « فالتصوف شيء غير التمصوف » ولا يمكن أن يحمل الإسلامُ وزرَ المسلم الذى ينحرف .

وهل يترك المسلم التقى إسلامِه ، لأن فى المسلمين قوما ضلوا السبيل ؟

التصوف دعوةٌ إلى الحرية المطلقة ، والسيادة التامة على النفس والشهوة ، وعلى الشيطان ، وعلى العبودية لغير الله ، وعلى كل صغار خلقى أو فكرى ، فهو أصل التحرر المطلق من أغلال المادة والهوى ؛ لأن الصوفى قد تحقق بقوله « لا إله إلا الله » .

---

(١) « من رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

فالتصوف « يا ولدى » كما رأيت – فوق أنه دعوة – « الحب والنور ، والفيض ، والبركة والمدد » هو دعوة الحرية المطلقة ، ورفض كل عبودية – حسية أو معنوية – لغير الله ، فهو يا ولدى : رد اعتبار الإنسانية للإنسان ، بعد ما فقد الإنسان اعتباره ، واستعبدته المادة ومكاره الأخلاق ، والكيوف المتحكمة ، والشهوات المظلمة ، والآمال المعتمة » • التصوف – يا ولدى – هو ترميم بناء الباطن بعد أن تحطم الإنسان من داخله •

التصوف الحق : دعوة إلى القوة ، والعلم ، والتوحيد ، والعزة ، والعدالة والمساواة ، والإحياء ، والتكافل ، والتكامل والتجديد ، والابتكار ، والسيادة والقيادة ؛ لأن الله خلق المسلم الحق ليمارس كل هذا وما يترتب عليه ، وما يتفرع عنه : قولاً ، وعملا ، وحالا ﴿ ليكون الرسول شهيدا عليكم • وتكونوا شهداء على الناس ﴾[1] ولكل كلمة من كل ذلك شرح عريق عميق ، أصله الكتاب والسنة ، وفرعه الفيض والمدد •

وهكذا كان من فاته التصوف الحق ، فقد فاته الخير الذى قد لا يعوض على الإطلاق •

وأى خير يكون إذا انقطعت علاقة المرء بالسماء وما وراء هذا من الأسرار والأنوار ؟! •

إن عند الصوفية ما عند الناس ، وليس عند الناس ما عند الصوفية •

يا ولدى : قد يعترض عليك بعضهم بأقوال ، لم يفهمها ، مما جاء عن بعض السلف ، والسلف بشر ، فإن أخطأوا فوزرهم على أنفسهم ولا نُسأل عنهم ، ولا نؤاخَذ بما اجترحوا ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2] •

ولكننا نعتقد أنهم أرادوا الخير ، وكانت لهم ظروف وصروف وملابسات ، أجبرتهم على الرمز والإشارة ، أو إلى الإلغاز والتحجية ، وما دامت أقوالهم تقبل التأويل الإيمانى ، ولو من وجه واحد من مائة وجه آخر ، فإننا نحمله على هذا الوجه الواحد المؤمن ، بحسن الظن ، وبحكم العلم ، وندع ما وراء ذلك لله وحده ، فليس أحد يقول أو يكتب شيئا ، وهو يعتقد أنه يدخل به النار ، وليس من حق أحد أن يحكم على

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ •   (٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥ •

أحـــد بالخروج من الملة إلا بدليـــل لا شبهـــة فيه « على مثل ضوء الشمس »[1] .

ونحن نعتقد أن لكلام القوم مفاتيح لمستغلقات مترامية الأبعاد ، فهى لخاصة الخاصة ، فما لم نفهمهم على مرادهم اليقينى ،فلندع لله أمرهم ، ولنستغفر الله لنا ولهم ، ونقول : لعلهم تأولوا ، أو اجتهدوا فأخطأوا ، هذا موقفنا : مبرءًا من الوغى[2] والدعوى ، على طريق الحب ،والخير ، والأدب .

يا ولدى : غاية كل متحرك إلى سكون ، ونهاية كل متكـــوِّن ألاَّ يكون ، فإذا كان ذلك كذلك ، فلِمَ التهالكُ على الهالك ؟ .

يقول أشياخنا : أصول صحبتنا سبعة :

١ - علوُّ الهمة .

٢ - وحفظ الحرمة .

٣ - وحسنُ الخدمة .

٤ - ونفوذُ العزمة .

٥ - وتعظيم النعمة .

٦ - والنصحُ للأمة .

٧ - ودفعُ الباطل بالحكمة .

وهم يقولون : « إذا ألف القلبُ الإعراضَ عن الله ، صحبته الوقيعةُ فى أوليائه » .

وقلَّما رأيتُ فى خصوم التصوف رقةَ الإسلام ، أو سعةَ الأفق ، أو سماحةَ النبوة ، أو رفقَ الولاية ، أو حسنَ الظن ، أو أدبَ المعاملة ؛ فإن ذلك كله إنما ينبع من معين التواضع ، الذى هو خميرة مكارم الأخلاق .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « على مثل الشمس ، فاشهد أو دَعْ » رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس مرفوعاً ، ولفظه : «إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وإلا فدع » ورواه الديلمى بلفظ « يا ابن عباس لا تشهد إلا على أمر يضىء لك كضياء الشمس » ورواه الطبرانى والديلمى أيضاً عن ابن عمر .

(٢) الصوت والجلبة .

وهؤلاء قد حُرموا هذه النعمة ؛ فليس منهم إلا جاف الطبع ، معتم القلب ، غليظ الروح ، ثقيل الظل ، مظلم ، معتم ، كأنما هو سجّان فظ ، أو صاحب « مشنقة » كنود ؛ فهو متأزم ، معقد ، حامل غل على الذين آمنوا[1] ، يكاد الكبر يتفجر من جنبيه ، تعاليًا على الناس ، وتألهًا عليهم ؛ فقد زعموا لأنفسهم العصمة وضمان الجنة ، وأقاموا من أشخاصهم أوصياء على دين الله ، كأنما الدين ما عندهم وحدهم ، إلا من رحم الله ، وقليل ما هم .

ويعلم الله أننا نأسى لهم ، ونعطف عليهم ، مما ابتلاهم الله به ، وندعو الله بظهر الغيب لهم ، ولا نزال نعتقد أنّ فيهم خيرًا ، نرجو أن يغلب عليهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

إن الناس لا يطلبون الله والجنة بما صَحّ عند غيرهم ، وإنما يطلبون ذلك بما صح عندهم ، فإن أصابوا فأجران ، وإن أخطأوا فأجر[2] ، وعند الله مزيد ، ولكل امرئ ما نوى .

يا ولدى : هذه لمحة « على هامش التصوف » وأرجو أن يكون لى عودة إلى مثل هذا الحديث معك ، إن كان فى العمر مدد ، فهو حديث غير ممنون : ذو شئون ، وشجون !! .

وإنى أقول ما قال السادة : لو أن الخاطئين خرسوا ما تحدَّثنا إليكم .
ويعلم الله لو كان للذنوب ريحٌ ما دنا منّا أحد[3] إلى أحد .
أقول قولى هذا ، وأستغفر لى ، ولكم ، وللمسلمين .

* * *

(١) أين هؤلاء من قول الله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ الآية ١٠ من سورة الحشر .

(٢) لقول رسول الله ﷺ ذلك .

(٣) قال الشاعر رحمه الله تعالى :

أحسن الله بنا ... أن الخطايا لا تفوحُ
فإذا المستور منا ... بين جنبيه فضوحُ

ابن تيمية يُنصف الصوفية

يقول الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، حجة السلفية وإمامهم وفقيههم ، فى كتابه « الفتاوى الكبرى » بالجزء الحادى عشر ، وبالصحيفة السابعة عشرة ما نصه :

« والصوفيون قد يكونون من أجَلِّ الصديقين ، بحسب زمانهم ؛ فهم من أكمل صدِّيقى زمانهم ، والصدِّيق فى العصر الأول أكمل منهم .

والصدِّيقون درجات وأنواع » ... الخ .

ثم يقول : « ولأجل ما يقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه ، تنازعَ الناسُ فى طريقهم ؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا : إنهم مبتدعون ، خارجون عن السنة ، وطائفة غالت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفى هذه الأمور ذميم ، والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، **ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب ، أو لا يتوب » أ هـ .**

وهنا نَقْلُ (نص) رأى الشيخ ابن تيمية ، فى صحة كرامة الأولياء من أواخر كتابه الذى سمّاه : (العقيدة الواسطية) ؛ فهو يقول بالحرف الواحد :

« ومن أصول أهل السنة ، التصديق بكرامات الأولياء وما يجرى على أيديهم من خوارق العادات ، فى أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات (تأمل ...) والمأثور عن سلف الأمم فى سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ،

وسائر فرق الأمة ، وهى موجـودة فيها إلى يوم القيــامة » (تأمل مرة أخرى . . .)[1] .

وبعد : فهذا هو عين اعتقاد الصوفية الذى لا يُعجب اليوم أتباع ابن تيمية ، ولا عملاء « اللحى البترولية ، !! » ولا طلاّب عقود العمل فى البلاد العربية .

* * *

(١) وقال فى رسالته « رأس الحسين » ما نصه : « وأما ما يُذكر من وجود رائحة طيبة ، أو خرق عادة أو نحو ذلك مما يتعلق بالقبر ، فهذا لا يدل على تعيّنه ، وأنه فلان ، أو فلان ، بل غاية ما يدل عليه أنه دليل صـــلاح المقبور أو أنه قبر رجل صالح ، أو نبىّ » ا.هـ

ابن القيم ينصف الصوفية

أنصف الشيخ (ابن القيم) السادة الصوفية الأبرار ، فى شرحه العظيم فى كتاب الشيخ (الهروى) ﷺ ، فمن ذلك قوله فى (منزل الرجال) صحيفة (٢٠) من الجزء الثانى ما نصه : « وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس : **إحداهما حجبت عن محاسن هذه الطائفة ، ولُطف نفوسهم** ، وصدق معاملاتهم ، فأهدروها ، لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية **الإنكار ، وأساءوا الظن بها مطلقا ، وهذا عدوان وإسراف ، فلو كان من أخطأ أو غلط تُرك جملةً وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها** .

والثانية : حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم ، وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم ، وحسن معاملتهم على عيوب شطحاتهم ونقصانها ، فسحبوا عليها ذيل المحاسن ، وأجرَوْا عليها حكم القبول والانتصار ، وهؤلاء معتدون مُفرِطون « أيضا » .

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والإنصاف ، الذين أعطوا كل ذى حق حقه ، وأنزلوا كل ذى منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح » ا . هـ

وقال أيضا فى صحيفة (٧٦) من الجزء الثالث ، بعد كلام عن **الجنيد : « فرحمة الله على أبى القاسم ؛ ما أتبعه لسنة الرسول - ﷺ ، وما أقفاه [1] لطريقته وطريقة أصحابه »** .

وقال أيضا فى صحيفة (٦٥) لدى كلامه على الوجد والتواجد ، ما نصه : « والتواجد استدعاء الوجد بنوع اختيار وتكليف .

واختلف الناسُ : هل يُسلَّم لصاحبه ؟ على قولين ، والتحقيق أن صاحب التواجد : إن تكلفه لحَظٍّ وشهوةٍ لم يسلَّم له ، وإن تكلَّفه باستجلاب حال أو مقام مع الله سَلم لهم » .

---

(١) يعنى : ما أشد اقتضائه .

وقال الحافظ ابن القيم أيضا فى « باب الجمع » صحيفة « ٢٧٦ » حين تكلم عن الذين تخطفهم لوائح « شهود الجمع » ولم يتمكن من البقاء ، فقال : « وهذا قد يعرض للصادق أحيانا ،فيعلم أنه غالط ، فيرجع إلى الأصل،أو يحكم الحكمَ على الحال ، وفى مثل هـــذا الحال قال أبو يزيد : « سبحانى » وغيره قال : « ما فى الجبة إلا الله »[1] ونحو ذلك إهـ .

* * *

---

(١) نسى هؤلاء المعترضون القاعدة النحوية المعروفة : حذف ما يُعلم جائز ، ومعلومٌ أن الله سبحانه وتعالى ليس فى الجبة فإنه سبحانه وتعالى ليس بجسم حتى يكون فى جبة أو غيرها ، بل فى الجملة محذوف تقديره « ما فى الجبة إلاّ صنْعة الله » والله تعالى أعلم . وقد شرح ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا الكلام شرحاً طيبا فى كتابه : « الرد الأقوم على ما فى فصوص الحكم » وقد طبعته قديماً جماعة أنصار السنة بتحقيق حامد الفقى .

الإمام الشاطبى السلفى ينصف التصوف

رحم الله الإمام السلفى ، العلاّمة ، الأصولى ، الشيخ « أبا إسحاق الشاطبى » حيث قال فى كتابه (الاعتصام) بالصحيفة (٢٧٤) من الجزء الأول ، ما نصه :

« وأما الكلام فى دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق ، ولا هو مما صح الدليل فيه بإطلاق ، بل الأمر ينقسم .

ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولاً ، حتى يقع الحكم على أمر مفهوم ؛ لأنه أمر مُجْمَل عند هؤلاء المتأخرين ، فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون ، وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان :

أحدهما : « التخلُّق بكل خُلُقٍ سَنِىّ ، والتجرُّد عن كل خُلُقٍ رَدِىّ » .

والآخر : أنه (الفناء عن نفسه ، والبقاء بربه) .

وهما فى التحقيق بمعنى واحد ، إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية ، والآخر يصلح به التعبير عن النهاية ، وكلاهما إنصاف ، إلاّ أن الأول لا يلزمه الحال ، والثانى يلزمه الحال .

وقد يعبَّر فيهما بلفظ الآخر ، وإذا ثبت هذا ، فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة فى الكلام فيه ؛ لأنه إنما يرجع إلى تفقه ما ينبغى عليه العمل ، وتفضيل آفاته وعوارضه وأوجه تلافى الفساد الواقع فيه بالإصلاح ، وهو فقه صحيح ، وأصوله فى الكتاب والسنة ظاهرة ، فلا يقال فى مثله بدعة ، إلا إذا أطلق على فروع الفقه التى لم يقل فى مثلها السلف الصالح إنها بدعة ، **كفروع أبواب السَّلَم ، والإجارات ، ومسائل السهو ، والرجوع عن الشهادات ، وبيوع الآجال ، وما أشبه ذلك ، وليس من شأن العلماء إطلاق** البدع على الفروع المستنبطة ، التى لم تكن فيما سلف ، وإن دقت

مسائلها ، فكذلك لا يطلَق على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة أنها بدعة ؛ لأن الجميع يرجع إلى أصول شرعية .

وأما بالمعنى الثانى ، فهو على أضرُب » . . . ثم فصَّلها[1].

ورحم الله كلاً من أنصف نفسه وأنصف الناس .

* * *

(١) راجع بقية كلامه لتكون من المنصفين .

الإمام المحدِّث الذهبى يعترف بالكرامات والأحوال والمقامات الصوفية

نقل هنا نماذج مما جاء فى كتاب « العبر » للحافظ الذهبى فهو يقول : فى ترجمة العارف بالله تعالى (أبو الرجال عبد الرحمن بن مرى ابن بحير) واسم أمه مريم ، يقول ما نصه : « ... وكان صاحبَ حال وكشف[1] وله عظمةٌ فى النفوس ، توفى سنة أربع وتسعين وستمائة ، ثم دُفن بقَرية (منين) بزاويته ، ومزارُه معروف ، والدعاءُ عند ضريحه مستجاب ، من كل عبد ملهوف !! وكان أبو الرجال من ذوى الأحوال وكان ناسكًا زاهدًا عابدًا ورعًا » إهـ .

وقال فى تاريخ الإسلام ما نصه : « على الفرثى : الرجـل الصالح ، كبير القدر ، صاحب كرامات ورياضات وسياحة ، وله أصحابٌ ومريدون ، وله زاوية بسفح قاسيون ،ثم له حكايات تدل على ولايته » .

إلى أن قال : « توفى فى جمادى الآخرة ، سنة إحدى وعشرين وستمائة بقاسيون ، وبنوا على قبره قبة »[2] .

وعن الشيخ العارف بالله تعالى أبى بكر « العرودكى » يقول الذهبى ما نصه : « سكن بسفح قاسيون ، وكان زاهدًا وله أحوالٌ وكرامات ، ومقامات ، وله شعر كثير ، رأيتُه فى ديوان مغربى ، وهو شعر طيب ، يقع على القلب ويحرِّك الساكن » .

* * *

(١) الإمام الذهبى يقر للصوفية الحال والكشف،و..و من هو : علمًا بالسنة ، وينكرها المتمسلفون! كما أنه يقر استجابه الدعاء عند أضرحة الصالحين،وهم ينكرونها .

(٢) هنا يعترف الإمام الذهبى أيضًا بالمقامات ، والكرامات ، والأحوال ، والقباب .

ابن خلدون والتصوف الإسلامى

وابن خلدون يَعُدُّ التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة شأنه شأنَ بقية علوم الدين كعلم الأصول والمصطلح وغيره من حيث التدوين والتفصيل والتبويب والتقنين ، أما من حيث المادة فهو حقيقة إسلامية أخلاقية تعبدية ، قال ابن خلدون : « وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقةَ الحق والهداية ، وأصلُها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامّا فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » .



الشيخ محمد عبده والتصوف الراشد

قال الشيخ محمد عبده فى رسالة « التوحيد » عن أهل الله من الصوفية ما نصه :

« أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء (يعنى الصوفيين الصادقين) ممن لم تَدْنُ مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء : فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال ، لا تُنْكَر عليهم ، لتحقّق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لايستبعدون شيئا مما يُحَدَّث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن ذاق عرف ، ومن حُرِمَ انحرف . ودليلُ صحته ما يتحدثون به ، ومنه ظهورُ الأثر الصالح منهم ، وسلامةُ أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم . وطهارةُ فِطَرِهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوقُ السليم .

قلنا : ويدعمه ما رُوى عن أبى هريرة ﷺ، عن النبى ﷺ قال : « لقد كان فيمن قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن منكم أحدٌ فعُمَر » .

أو كما قال .

* * *

العقَّاد والتصوف الصحيح

جاء فى كتاب « الفلسفة القرآنية » للأستاذ المحقق الكبير السيد عباس محمود العقاد ، ما نصه :

- « لكن التصوف فى الحقيقة غير دخيل فى العقيدة الإسلامية ؛ لأنه كما قلنا فى كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية مثبوت فى آيات القرآن الكريم ، مستكنٌّ بأصوله فى عقائده الصريحة .

فالمسلم يقرأ فى كتابه « القرآن » ﴿ ففروا إلى الله ﴾[1] .. الآية ، فيعلم ما أصبح يتعلمه تلاميذ البوذيين ، حين يؤمنون بأن ملابسة العالَم تُكدِّر سعادة الروح ، وأن الفرار إلى الله هو باب النجاة .

والمسلمُ الذى يقرأ هذه الآيات « ونحوها » وهو مطبوع على التصوف ، والبحث عن خفايا الآثار ، ودقائق الحكمة ، يجد فيها غناءً من الأصول الصوفية ، ولا يفوته إذا اكتفى بها أن ينشىء منها مدرسة صوفية إسلامية تلتقى بالمدارس « الصوفية » الأخرى فى كثير وتنفصل عنها فى كثير » ؛ لاتِّساع هذا المجال » ولكنها لا تنعزل عن لباب التصوف ، بالطبع والفطرة ، كما يرى « بحق » بعض المعقبين على الصوفية الإسلامية ، التى يستمدها المسلم من الدين » إهـ .

* * *

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠

المرحوم الدكتور محمد سعاد جلال
والتصوف الحق

سُئل العالم الأصولى الفقيه ، الأستاذ المرحوم « الدكتور محمد سعاد جلال » عن رأيه فى التصوف فأجاب بالآتى :

« إن رأى علماء الدين فى هذه المسألة جاهز .

وهو أن التصوف الحقيقى ، الذى كان عليه سلف الأمة ، خصوصًا فى أواخر القرن الأول والثانى ، قبل أن يدخل عليه المخالطات الهندية ، والشوائب المجوسية ، والمسيحية ، التى دخلت على أفكار المسلمين مع دخول الفلسفات الأجنبية إليهم ، كاليونانية ، وغيرها » نقول : « إن **هذا التصوف الحقيقى ، الذى خلا من هذه الأوضار ، كان محض العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، مع الأخذ بمزيد من الزهد فى الدنيا ، والإعراض عن شهواتها ، وفزع النفس عن الخضوع للذاتها ، وتطهيرها من الرعونات البشرية ، كان هذا السلوك المثالى فى العلاقة مع الله هو ما يسمى « التصوف » .**

ثم ابتُدعَتْ بعد ذلك أنماط خبيثة من العقيدة والعمل ، سميت بالتصوف ، كوحدة الوجود ، التى قال بها بعضهم ، واقترن بها عمليات الطبل والزمر ، وكلُّ ذلك باطل وبدعة وإلحاد ، وخروج عن منهج الإسلام .

وما يُرَى الآن من الطبل والزمر ، وخلط ذلك بالمدائح النبوية ، فهو امتداد لتلك الضلالات والجرائم ، التى ظهرت فى القرن الثالث ، وتعاظمت فى القرن السادس ، فهى حرامٌ قطعًا ، ويجب العمل على إزالتها ، والله المستعان » .

* * *

الشيخ متولى الشعراوى والتصوف

تحدث فضيلة الأستاذ الجليل ، الشيخ محمد متولى الشعراوى إلى الأستاذ (على حسن على) عن مجمل رأيه فى التصوف ، ملخصا فيما يأتى :

من هو الصوفى ؟

يقول الشيخ الشعراوى : « إن الصوفى هو الذى يتقرب إلى الله بفروض الله ، ثم يزيدها بسنة الرسول ﷺ ،من جنس ما فرض الله ، وأن يكون عنده صفاء فى استقبال أقضية العبادة ، فيكون صافيا لله ، والصفاء : هو كونك تصافى الله فيصافيك الله » .

تعدُّد الطرق :

« وكل إنسان وصل إلى الله بطريق من الطرق ، أو صيغة من الصيغ ، يعتقد أن الطريق الذى سلكه إلى الله هو أقصر الطرق ،ولذلك اختلف الناس ؛ لأن وسائل عبادة الله متعددة ، فإذا دخل إنسان من باب وطريق ، وأحس أنه نقله وأوصله إلى الله ، بادر إلى نقله لمن يحب » .

ويضيف الشيخ الشعراوى : « ومن هنا ، فإن معنى أن هناك طرقا صوفية ، هو أن أناسًا وصلوا إلى الصفاء من الله سبحانه وتعالى ، وجاءتهم الإشراقات والعلاقات التى تدل على ذلك فى ذواتهم ، فعلموا أن الطريق الذى سلكوا فيه إلى الله صحيح ، وكلما زادوا فى العبادة : زاد الله فى العطاء » .

من هم المريدون :

ويقول الشيخ : « كنا قد قلنا : إن السالك للطريق ، يرى أن الطريق الذى سلكه هو الأفضل بالنسبة له ، ويجب أن ينقله لأحبابه ، وعندما يجد هؤلاء فيه أشياء لم يجدوها فى سواه ، يلتفّون حوله ، وينفذون ما يقول لهم ، من عبادات تقرِّبهم من الحق جلَّ وعلا ، ثم بعد ذلك يصبحون مريدين ، ما داموا قد أصبحوا أهلاً للقرب من الله .

..ريد هو : من أرادَ اللهَ ، وعمل على رضاه .

التصوف رياضة روحية :

والتصوف من هذا المنطلق رياضة روحية ؛ لأنها تُلزم الإنسان بمنهج تعبُّدى لله ، فوق ما فرضه .. وهذه خطوة نحو الود مع الله .

والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى : « من أتانى يمشى أتيتُه هرولةً »[1] ولم يقل سبحانه : جئته أمشى ، ولو قالها لكان المشى بالنسبة له شيئا كبيرا ، فما بالك بهرولةٍ منسوبةٍ لله .

ومن هنا يدخل الإنسان فى مقام الود مع الله ، ومعنى أن يوده الله أن يصافيه الرياضة والمقامات .

وهكذا يمنُّ تعالى على هؤلاء المتصوفين ببعض العطاءات التى تثبت لهم أنهم على الطريق الصحيح ، وكلما زاد العبد فى عبادته : زاده الله فى وده ، ولا نستطيع أن نقول : إن هذه الزيادات تصل إلى حد ما ؛ لأن عطاء الله ليس له حدود » .

تعريف العطاءات :

وعن تعريف العطاءات يقول الشيخ : « **إنها هى التى ينخرق بها ناموسٌ ما فى الكون ، على قدر صفاء المؤمن تنخرق له النواميس التى تحكم الناس ، بأن يُطلعه الله على حكم بعض مجريات الأمور قبل أن تحدث ، ويعطيه صفحة من صفحات الكون لأى إنسانٍ ، فينبئه به أو يبشره به ، ليجذبه إلى جهته ، أو أن يريد بعبد له خيراً ، فيريه شيئا من خرق نواميس الكون غير العادية ، وأنا لى رياضة ، ولو أنها خطوات بسيطة ،** وأصبح عندى مبدأ التصديق واردا ، لأننى عندما خطوت خطوة أكثر من الآخرين ، رأيت ، وهكذا » .

---

(١) ومن نصوص الحديث ما رواه الإمام مسلم ، والإمام أحمد وابن ماجه :

يقول الله تعالى : من عمل حسنة فله عشر أمثالها ، وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها ، أو أغفر ، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ، ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلتُ له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إلىَّ شبراً اقتربت إليه ذراعًا ، ومن اقترب إلىَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا ، ومن أتانى يمشى أتيتُه هرولة » .

فلا الصوفى يكذِّب الصوفى ، ولا يعارض ،ولذلك فهم يأتلفون ، ويحب بعضهم بعضا ، ولكل منهم مقام ومكان .

وعندما يدخل الصوفى مقامات متعددة ، وجئنا بمن لم يتريض ولم يدخل فى مقامات الود ، وحدّثناه بها ، فلا شك أنه يكذِّبها ، ولكن تكذيبها دليل حلاوتها .

والمتصوف الحقيقي يعطيه الله أشياء لا تصدقها عقول الآخرين ، ولذلك فعليه أن يفرح بذلك ، ولا يغضب من تكذيب الآخرين له » .

التمايل فى الذكر :

وسألت جريدة « المجاهد » الصادرة عن القوات المسلحة فضيلة الإمام الشيخ « متولى الشعراوى » عن التمايل فى الذكر ، وهو طبعًا غير الرقص الذى يعمله الجهلة ، فقال ما نصه :

« لا مانع فى التمايل أثناء الذكر ، إذا كان هذا التمايل نتيجةً لغلبة الوجد عليه ،أما اذا كان هذا التمايل مفتعلا ، فهذا لا يليق .

والذكر جائز على أى حال ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيامًا وقعودا وعلى جنوبهم . . ﴾[1] .

ولا ريب أن فى الذكر راحةً نفسية ، وهدوءًا للأعصاب .

وعلى كل حال ، فالذاكرون وإن تمايلوا ، فهم خير من الذين يتمايلون فى حانات الرقص ونحوها » !

* * *

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

الباب الخامس

تــدرُّج تاريخ مشيخة
المشايخ الصوفية
بحث غير مسبوق

تدرج تاريخ مشيخة المشايخ الصوفية
وظيفة « الخوانق » ونحوها فى نشاط الثقافة الإسلاميةوالخدمات الإنسانية

(١)

مما كان يقوله إمامنا « الجنيد البغدادى » :

« إنَّ علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ؛ فمن لم يحفظ القرآن ، ويكتب الحديث ، فليس منا » .

وإن هذا هو الدستور ، ولا يزال هو منهج الصوفية الواعية الراشدة ، يدل له منهج مدارج السلوك العملى ، كما اختاره السادة فى الآية الشريفة : ﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشِّر المؤمنين ﴾[١] فهذا هو تدرج منهج السلوك العملى ، والدعوة الإيجابية ، الذى يستوجب الإحاطة بعلوم الكتاب والسنة إحاطة كافية للتطبيق الشخصى ، والرسالة العامة ؛ بدايةً بالتوبة ونهاية بالمعرفة : هى البشارة فى الآية ، وهذا هو ركن الدعوة الصوفية الأصيل على مختلف الأساليب والتسميات .

* * *

(٢)

ومن ثَمَّ فإنه بعد انتهاء أنظمة الحكم الفاطمى ، على يد صلاح الدين بمصر ، ترى أنه استبقى وظيفة (قاضى القضاة) للإشراف على الحركة الشرعية الفقهية فى الدولة على الأساس السنى ، ثم جعل وظيفة (شيخ الشيوخ) للإشراف على الجانب الروحى والخلقى ، ومسار

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١٢

الدعوة إلى الله بدلا من وظيفة (داعى الدعاة) التى كانت فى الحكم الفاطمى ، لمثل هذا الغرض ، ولكن على المذهب الشيعى . ولما كانت الدعوة إلى الله فى حاجة إلى تربية علمية وفقهية وخلقية متمكنة . خصص صلاح الدين دار (سعيد السعداء)[1] لتكون مقراً للمشيخة الصوفية العامة ، بحيث تستوعب أنشطتها المختلفة ، وتكون أشبه بجامعة علمية داخلية متكاملة للأشياخ وأتباعهم . ثم مقرًا لضيافة زوار مصر من العلماء الصوفية ، ثم دار إيواء للمسنين والمعوّقين ، وقد وقف صلاح الدين على أهل هذه الدار ، بستان (الحبانية) العظيم بحيث يكفى بر يزيد دخله عن حاجة أهل الدار ، كما بنى حمّاما خاصا بهم وسمى رئيس الدار(شيخ الشيوخ) وسميت الدار باسم الخانقاه وهو لفظ فارسى معناه (المكان المحترم) فكان هذا أول العهد « بمشيخة المشايخ »[2] فى مصر والإسلام ، وكان الصوفيون قبل هذا طوائف وفصائل ، يقيمون شعائرهم بالزوايا الخاصة والربط[3] والدويرات ، وبهذا اكتسب صلاح الدين شعبية كبرى ، ووضع نواة النظام الإدارى بإشراف الدولة على هذا القطاع الهائل المتناثر من رجال الدعـــوة التى لا تخلو منها أرض ولا بيت ، فى مصر بخاصة ، والعالم الإسلامى بعامة ، ولبيان جلال هذا

---

(١) دار سعيد السعداء لا تزال بقاياها قائمة بحى الجمالية تنسب إلى سعيد السعداء عتيق الخليفة المنتصر ، وقد سكنها بعده الملك الكامل بن صلاح الدين ، ثم الصالح بن رزيك ، وغيره من كبـار الدولة ، كما كانت داراً للحكومة فى بعض الأوقات . وأما قبره رحمه الله ، فهو الآن بمنطقة حوش الشرقاوى ، لا زال موجوداً حتى الآن . وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات - فى ترجمة سيدى عمر وفاء : « كان ﷺ يقول : « الخنق فى اللغة : التضييق ، والخانق الطريق الضيق ومنه سميت الزاوية التى يسكنها صوفية الرسوم : الخانقاه لتضييقهم على أنفسهم بالشروط التى يلتزمونها فى ملازمتها !

(٢) لا يوجد فى أية دولة إسلامية قانون ينظم شئون الصوفية إلا فى مصر وحدها .

(٣) الرباط : بناء عسكرى على شواطىء الدولة وحدودها ، وكان أكثر ما بالربط الصوفية لصد العدوّ والدفاع عن الوطن .

المنصب الصوفى ، وكرامة أهله كان يتولى مشيخةَ المشايخ أكابر الأكابر من العلماء الخواص ، والشخصيات البارزة من الأمراء والقادة والأعيان ٠

* * *

(٣)

فنذكر ممن تولى المشيخة بسعيد السعداء ، السادة المشايخ : صدر الدين محمد بن حموية الشافعى الجوينى[١] ، ثم ولده كمال الدين ، ثم ولده معين الدين ، مع ما كان لهم من الإمارة والوزارة وقيادة الجيش ، كما ولى هذه المشيخة قاضى القضاة ، والعالم القائد الكاتب الوزير تاج الدين بن بنت الأعز ، ثم أخوه عبد الرحمن ، كما وليها قاضى القضاء الفقيه الأصولى بدر الدين بن جماعة ، ووليها العلاّمة علاء الدين القونوى ، والعلاّمة مجد الدين الأقصرائى ، والشيخ جلال الدين جار الله الحنفى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ، والشيخ شهاب الدين الأنصارى ، والتقى القلقشندى ، والسراج العبادى ، وغيرهم ٠

ويروى المقريزى أن الناس كانوا يأتون من أطراف مصر وضواحيها إلى القاهرة فى يوم الجمعة ، ليتبركوا بشهود صوفية سعيد السعداء ، وهم فى الطريق إلى صلاة الجمعة بجامع الحاكم ، بل ذكر بعضهم أن الناس كانوا يلقون بالورود والزهور والماء المعطر ، ويطلقون البخور الجيد فى طريقهم لما عليهم من الوقار ، وما لهم من الهيبة ، ومزيد المحبة ، وبركة خدمة الدعوة إلى الله تعالى ٠

* * *

(١) ومسجده معروف بمنطقة السيدة فاطمة النبوية بمسجد الجوينى

(٤)

ثم كثرت الخانقاهات التى أصبحت جامعات داخلية عملية متكاملة كما قدَّمنا ؛ فبنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس ، ثم أنشئت بعدها خانقاه قوصون (قيسون) وتولى مشيختها الشيخ شمس الدين الأصفهانى صاحب المؤلفات الجليلة ، وخانقاه فرج بن برقوق الملحق بمسجده المعروف ، وكانت من أروع وأعظم أمثالها ، لا يزال أثرها موجودًا لليوم ، ويطلق على القرية التى كانت بها : (الخانكا) مركز شبين القناطر بالقليوبية . ولكى ندرك شيئا عن النظام العلمى الشامل ، الذى كان يدرِّس بغاية الدقة والعناية بهذه الخوانق ، أو الجامعات ، أو كليات التعليم العالى ، لإعداد العالم الصوفى القــدوة ، نذكر أن الأمير (شيخون) العُمَرى ، عندما أسس الخانقاه المشهورة للآن باسمه ، أمام مسجده بمنطقة (الصليبة) بين حى القلعة والسيدة زينب ، شرقىّ (سبيل أم عباس) بالقاهرة ، رتَّب فيها إجباريًا دراسةَ المذاهب الأربعة ، والتفسير ، والأصول مع دراسة الحديث الشريف من الصحيحين ، ودراسة القراءات السبع ، بالإضافة إلى التصوف الإسلامى .

وشرط فى شيخ الخانقاه أن يكون معروفًا بالتقوى وسعة الأفق العلمى والخُلُقى ، بحيث أنه هو الذى يدرِّس التصوف والمذهب الحنفى معًا ، ولا يكون قاضيًا حتى لا تشغله وظيفة القضاء عن رعاية الخانقاه ، فتولى المشيخةَ بها الشيخُ أكمل الدين البامبرتى الحنفى ، كما درّس بها فقه المالكية وأصوله الشيخ المجتهد: خليل (صاحب المختصر) الذى هو أشهر وأجمع بحث فى المذهب المالكى ، ودرَّس فقهَ الشافعية : الشيخ العلامة بهاء الدين ابن الشيخ تقى الدين السبكى ، وفقهَ الحنابلة : العلامة موفق الدين الحنبلى ، كما تولى التدريس الحافظ ولاء الدين بن عبد الله الزولى ، ثم المحدث تقى الدين الواسطى ، الخ ... وتوالى على مشيخة هذه الخانقاه أعيان العلماء كالشيخ عز الدين بن يوسف الرازى ،

والشيخ القيصرى المعروف بابن العجمى، والشيخ علاء الدين السيرامى ، والبدر الكلستانى ، ثم الجمال بن العديم ، ثم أمين الطرابلسى ، ثم الإمام السراج الحنفى ، الذى قرأ لطلاب الخانقاه كتاب الهداية من أشهر وأكبر مراجع المذهب الحنفى ·

وبهذا ينتفى الوهم الفاضح ، الذى كان و لا يزال يسيطر على خصوم الصوفية ، بأن الخانقاهات كانت مضايف (للتنابلة) شأن(تكايا) الأتراك فى العصر الأخير ·

إن الخانقاهات كانت أولَ ما عرفه المسلمون من المدارس المجانية ، التى كانت تقدِّم العلم من أعظم أعلامه · مع منحة الإطعام الطيب ، والإيواء المشرِّف ، والمصروفات الضرورية،فليعلم هذا من لم يكن يعلم

* * *

(٥)

فكانت هذه الخوانق تُخرج العالم الصوفى الداعية الزاهد المبارك العابد (البسيط) الذى ينشر المحبة واليسر والسماحة والتعاطف والتآلف والبركة ، عمليًا بين الناس ، وهذا هو أساس الإقبال العظيم والحب الذى لا يزال يملأ قلوب أهل الريف والمدن ، نحو الصوفية الأمجاد ، ويجعلهم يدينون بالطاعة لهم ، والثقة فيهم ، والشوق إليهم ؛ فهم أينما حلّوا يعم البشر والخير والسعادة والفرح والسكينة والراحة النفسية ·

وقد كان الصوفيةُ هم الوعّاظ وهم أئمة المساجد والزوايا ، فى الغالبية العظمى من مساجد الريف المصرى وزواياه ، شمالاً وجنوبا ·

وكانت علاقاتهم بالناس علاقة الأبوة الحانية ، والعفة الشاملة ، والتواضع والتسامح ، والتجميع والتكتيل ، حين لم تكن قد وُجدت وزارات الأوقاف ، ولا الوعاظ والأئمة الموّظفون بالأجور والمهايا ·

فكان دعاة الصوفية هم مصابيح الهدى ، وحملة النور والأمل ومكارم الأخلاق ، والفقه والوطنية إلى خلق الله ·

ثم تطور مع الزمن نظام الخوانق إلى نظام المدارس ؛ فأنشئت مدرسة دار الحديث الكاملية (الملك الكامل الآن بالجمالية) وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل بها ، ويعقد دروسه عندما يزور القاهرة ، قادماً من اسكندرية ، وكان شيخها هو العالم الصوفى المحدِّث الشيخ محمد بن سراقة الشاطبى ، كما تولى مشيختها العالم المحدِّث الصوفى الشيخ قطب الدين القسطلانى ·

ثم المدرسة الصالحية (مسجد الصالح أيوب بالجمالية) وكان شيخها وزير الملك الكامل الشيخ تاج الدين بن بنت الأعز ، الذى تولى من قبل مشيخة المشايخ بخانقاه سعيد السعداء ثم (المدرسة الصالحية التى كانت مجاورة لضريح الإمام الشافعى) ·

وتولى مشيختَها الصوفىُّ العالم الزاهد الشيخ نجم الدين أبو البركات محمد بن سعيد الخبوشانى ، مؤلف (التحقيق المحيط فى شرح الوسيط) ·

ثم المدرسة الناصرية التى أسسها الناصر محمد بن قلاوون ، وكانت مجاورةً لمسجد عمرو بن العاص ، وتولى مشيختَها ابن (زين التجار) العالم الصوفى المظفر بن حسين ، كما كانت تعرف بالمدرسة « الشريفية » أيضا ، نسبةً إلى الشيخ الشريف الزاهد ، شيخ الشيخ ابن الرِّفعة ، وابن الرفعة هو : الفقيه الأصولى الصوفى الورع ، ثالث الشيخين الرافعى والنووى فى الترجيح عند الشافعية ·

ثم المدرسة الظاهرية التى أنشأها الملك الظاهر بيبرس (وهى نفس الجامع المشهور باسم جامع (الظاهر الآن) والذى كان قد احتله الإنجليز فترةً ، وجعلوه مجزرة لذبائحهم ، حتى اشتهر بين العامة (بمذبح

الإنجليز)وكان من فقهائه الصوفية العلاّمة مجد الدين بن وهب ، المحدث الصوفى المجاهد أبو الفتح محمد القوصى المشهور (بابن دقيق العيد) وهو من تلاميذ العز بن عبد السلام ·

ثم مدرسة السلطان حسن ، وهى جامع السلطان حسن المعروف بالقلعة ، ويعتبر من أكبر مفاخر العمارة الإسلامية ، وقد شيد فيه أربع أجنحة كبرى ؛ كل جناح لمذهب من المذاهب الأربعة ، واختار طلبته من أفضل الصوفية ، وأساتذته من أشهرهم ·

* * *

(٦)

ثم عادت بحكم الظروف أنظمة (الزوايا) وهى مساجد صغيرة · يتخذها أئمة الصوفية لنشر دعوتهم وعبادتهم ، وتقوم مقام المدارس والخوانق على أسلوب أبسط وأقل نظرًا لعدم توافر القدرة المالية ، وتغيُّر الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، مع المحافظة بقدر الإمكان على دروس الدين والتصوف ، واستضافة الأغراب وفقراء الطلاب وإيواء المسنين والعَجَزة ·

ومن أشهر هذه الزوايا زاويةُ ولىِّ الله الشيخ الحلوجى التى كانت تقع بين ميدانى الحسين والأزهر ، وقد دفن بها أيضا الشيخُ عبيد الله البلقينى الذى كان يزوره السلطان الغورى والسلطان قايتباى ، وكانت تقع بالأرض التى بها النفق الموصل ما بين الميدانين الآن ، وكانت لها أوقاف وحمّام كبير ، ثم هُدمت للتوسعة بين الميدانين ونُقِل رفاتها إلى ما يسمى (مقلب الأولياء) بشارع الركبية، وهو نوع من العقوق وإهدار الحقوق ، ولا قوة إلا بالله ·

ثم زاوية الدمرداش محمد بن عثمان بالعباسية ، شرقىّ مستشفى الدمرداش ، الذى أسسه حفيد أحفاد السيد عبد الرحيم الدمرداش ، والد

السيدة المعروفة « قوت القلوب الدمرداشية »، وشيخ الطريقة الدمرداشية ، وكان لهذه الزاوية ملحقٌ به عدد من الخلوات الصوفية لمن شاء الخلوة من تلاميذ الطريقة الدمرداشية ، وكان لهذه الخلوات نظام محدد ، وتقاليد متَّبعة ؛ لأنه كان للخلوات والمريدين والخدم رواتب وعوائد من حصيلة الأوقاف العظيمة التى كانت للزاوية ·

وزاوية أبى السعود الجارحى بمصر القديمة ، والآن يجددها المسئولون ، وينشئون حولها حديقةً مناسبة ، وقد استغلها بعض المارقين والمنحرفين لإقامة (الزار) فى كل يوم الثلاثاء ، لإخراج الأرواح والعفاريت الشريرة من الأبدان ، على غير ما ترضى به الشريعة ، على حين كان الشيخ أبو السعود من أفضل علماء الصوفية المباركين ، وكان على علم تام بالطب ، وكان يعالج الناس بالمجان ، ولعل هذا هو سبب إقامة مهزلة (الزار) الأسبوعية فى زاويته حتى الآن ، ولم ينفع فى القضاء على هذه المهزلة جهد الحكومة ولا الأزهر ولا غيره ·

ثم زاوية الخضيرى بجوار جامع ابن طولون ، وإليه ينتهى نسب الطريقة الخضيرية ، وزاوية كريم الدين الخلوتى بالجودرية ، بين الغورية وباب الخلق ، وزاوية تاج الدين الذاكر شمال باب زويلة أمام مسجد طلائع بن رزيك ، وزاوية الإمام الشعرانى بميدان باب الشعرية ، وزاوية الشيخ على المرصفى بين الناصرية وجامع الأمير حسين وباب الخلق ، وقد جددت العشيرة المحمدية زاوية المرصفى بالتعاون مع المرحوم السيد محمد الغندور ، التاجر المعروف وبعض الصالحين بالمنطقة ، ثم زاوية الشيخ الشبكى ، والشيخ مدين الأشمونى ، والشيخ الغمرى بباب الشعرية ، وهكذا كثرت الزوايا بكثرة المشايخ الداعين إلى الله تعالى لتقوم مقام الخوانق والمدارس فى المدن والقرى ، ولكن بطريقة مصغَّرة ، وكانت أحيانا إذا ألحقت بها بعض المساكن تسمى (الدويرات) - وكانت كلها تخضع لشيخ المشايخ ·

* * *

(٧)

قالوا : وكان ممن تولى مشيخة المشايخ فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر مولانا الشيخ الإمام العظيم جلال الدين السيوطى · وكانت قد انتشرت البدع والمناكر والمستكرَهات والمحرَّمات فى صفوف أكثرية عوام الصوفية ، ولما أراد السيوطى أن يردّهم إلى الصواب ، انتهز الغوغاء منهم خلوَّ مسجد بيبرس الذى كان يصلِّى به الشيخ السيوطى ويلقى درسه اليومى ، فكبّوه على وجهه وجرّوه على أرض المسجد ، وهم يضربونه بالقباقيب حتى ألقوه فى فسقية الميضأة ، ثم حمله الناس إلى داره ، قالوا : فما خرج منها بعد ذلك قط إلا إلى قبره !! · · · رحمه الله ·

قالوا : وقد تنقلت مشيخة المشايخ فى البيوت الصوفية الكبرى طيلة هذا القرن ، حتى استقرت فى بيت الشيخ شمس الدين الحنفى البكرى ، صاحب المسجد المعروف بحى السيدة زينب ، وقد أخذ الطريق عن ابن الميلق الشاذلى ، وأخذ علم الحديث عن حافظ مصر ومحدِّثها الشيخ زين الدين العراقى ، وكان الشيخُ الحنفى معاصرًا لرأس السادة الوفائية الشيخ على بن الشيخ محمد وفا ، والشيخ ابن حجر ، والشيخ العينى ، وغيرهم من كبار أئمة الشرع والتصوف ، وكان يزوره الملوك والسلاطين طالبين رضاه وبركته ويخدمه الأمراء والأعيان ·

قالوا : حتى آلت المشيخة بالتوارث فى بيت البكرى إلى الشيخ أبى المكارم البكرى من أحفاد شمس الدين الحنفى ، ثم ورثه فيها ابنه أبو السرور البكرى ، وهكذا توارثها بيت البكرى على ضعف ، حتى كادت أن تتلاشى ، حتى قررهم فى هذه المشيخة قائد الفتح الفرنسى نابليون ، وثبَّت فيها الشيخ خليل البكرى ، وهكذا حتى آلت إلى السيد توفيق البكرى ، ثم إلى السيد عبد الحميد البكرى ، ثم إلى السيد أحمد مراد ابن السيد عبد الحميد ·

* * *

(٨)

ثم كان من الشئون السياسية ما جعل الملك فؤاد يخلع السيد أحمد مراد من المشيخة ، ويلغى نظام وراثتها فى بيت البكرى ، وعين الشيخ أحمد الصاوى العمرانى ، أحد علماء الأزهر شيخًا لمشايخ الطرق الصوفية ، بدلاً من أحمد مراد البكرى .

ولما توفى الشيخ الصاوى عين رجالُ الثورة الشيخ محمد علوان البلبيسى الخلوتى شيخًا للطرق الصوفية ، حتى توفى ، فعين من بعده الشيخ محمد السطوحى ، كل هذا فى ظل اللائحة الصوفية القديمة ، الصادرة فى سنة ١٩٠٣م من عملِ الشيخ توفيق البكرى .

ثم توفى الشيخ السطوحى ، فعُين من بعده السيد الدكتور أبو الوفا التفتازنى نائب رئيس جامعة القاهرة ، وأستاذ التصوف بها ، شيخًا للمشايخ ، وكان والده من أشهر صوفية الجيل الماضى ، وهى أول مرة يشغل فيها هذا المنصب الشرفى رجل صوفى يحمل الدكتوراه ، وكان تعيينه على أساس اللائحة الجديدة للطرق الصوفية ، الصادرة فى أوائل الثمانينات بمجهود كبير يعلمه الله !! رغم ما عليها من الملاحظات الهامة . ثم توفى إلى رحمة الله تعالى ، وتولاها من بعده الآن الوزير أحمد عبد الهادى القصبى شيخ السادة القصبية الخلوتية

نسأل الله تعالى أن يوفق شيخ المشايخ ، ورجال المشيخة ، والمجلس الصوفى عموما ، إلى تصحيح الأوضاع المختلفة ، وإعادة المجد الصوفى الضائع ، وأن يهيىء للتصوف سبيل تحريره وتطهيره وإذاعة فضله ، حتى تنقطع ألسنة المفترين عليه بالباطل هناك وهنا ، وحتى يمكن له أن يؤدى رسالته الإنسانية الخالدة التى لا يُغنى عنه فيها شىء آخر .

والحمد لله رب العالمين

محمد زكى ابراهيم

شيخ السادة المحمدية ، ورائد العشيرة المحمدية ،

وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،

وعضو اللجنة العليا الدينية بمحافظة العاصمة .

مشيخة عموم الطرق الصوفية

بجمهورية مصر العربية

كشف بأسماء السادة مشايخ الطرق الصوفية ووكلاء المشايخ بجمهورية مصر العربية الذين لهم حق الترشيح لانتخابات المجلس الأعلى للطرق الصوفية ..

الاسم	الطريقة	العنوان
سماحة السيد الوزير / أحمد عبد الهادى القصبى	شيخ مشايخ الطرق الصوفية وشيخ السادة القصبية الخلوتية	عمارة الجمعية اليونانية - شارع يوسف مكرم - طنطا .
السيد / أحمد كامل يس الرفاعى	الرفاعية	مسجد الرفاعى - قسم الخليفة - القاهرة ص ٠ب : ١٩٣٧ القاهرة
السيد / عصام الدين أحمد شمس الدين	المرازقة الأحمدية	ش قصر الشوق - الجمالية القاهرة
السيد / محمد على عاشور	البرهامية	١٦ درب راشد - قصر الشوق - القاهرة
السيد / مالك محمد علوان	العلوانية الخلوتية	بلبيس - شرقية
السيد / محمد سلامة نويتو	الكناسية الأحمدية	٢ شارع محمد يوسف سليم - هليوبوليس - مصر الجديدة
السيد / عبد السميع محمد محمود السطوحى	السطوحية الأحمدية	شارع ٧٧ رقم ٥٠ - المعادى
السيد / علاء الدين ماضى أبو العزائم	العزمية الشاذلية	١١٠ ج شارع مجلس الشعب - القاهرة

الاسم	الطريقة	العنوان
السيد / حلمي محمد زايد (قائم باعمال الطريقة)	الحامدية الشاذلية	شارع الحجاز من شارع جامعة الدول العربية المهندسين الجيزة
السيد / عبد المجيد أبو المجد الشهاوى	الشهاوية البرهامية	٩شارع سليم عبده-ميدان عبده باشا العباسية - القاهرة
السيد / أحمد محمد أمين الشوارين	الخلوتية الضيفية	٣٩ شارع أبو بكر الصديق - الدقى
السيد / على الذهبى السيد حموده الخضرى	السعدية	باب النصر - شارع نجم الدين - ضريح سيدى يونس السعدى - الجمالية القاهرة
السيد / محمد عبد السلام طه مشينه	السلامية الشاذلية	٢٢ شارع الباق - الدراسة - القاهرة
السيد / عبد العزيز محمد ابراهيم الجمل	السمانية الخلوتية	٤٣ شارع حوش قدم -الدرب الاحمر - القاهرة
السيد / على فكرى على منصور كريم	العروسية الشاذلية	١٨ شارع الصالحية - الحسين - القاهرة
السيد اللواء / محمد جمال الدين شرف	الشبيبانية التغلبية	٥ شارع الحكماء - منشية البكرى - القاهرة
السيد / محمد سر الختم الميرغنى	الميرغنية الختمية	٦٤ شارع جامعة الدول العربية - الدقى
السيد / محمد حسن الشعيبى	الشعيبية الأحمدية	١٦ درب الفراخة قصر الشوق الجمالية - القاهرة
السيد / ابراهيم أحمد ابراهيم أحمد	التسقيانية الأحمدية	١٥ ش منشية الجمل الزاوية الحمراء - القاهرة
السيد / مصطفى أبو الفتح القاوقجى	القاوقجية الشاذلية	١١٠ شارع الحجاز - مصر الجديدة
السيد / حامد أحمد فضل	اليومية الأحمدية	شارع أمير الجيوش حارةكف الموزرقم ٦ الجمالية القاهرة

الاسم	الطريقة	العنوان
السيد / أحمد ضياء الدين الجنيدى	الحلبية الأحمدية	٥ شارع اسكرابية - مصر الجديدة - القاهرة
	السلامية الاحمدية	
السيد / عمر محمد يوسف مروان	المروانية	٢ ش الجبرونى - عمارة مصوع - كفر الزيات
السيد / محمد يوسف المرزوقى	المدينة الشاذلية	٥ شارع السراى - أول نيل الروضة - القاهرة
السيد / أحمد عفيفى أحمد الساكت	العفيفية الهاشمية	شارع النصر - عمارات أول مايو عمارة رقم ٥ الدور التاسع
السيد المهندس / محمد عبد الخالق مصطفى الشبراوى	الشبراوية الخلوتية	١٠٠ شارع السودان - بحرى مدينة الاوقاف - أمام محكمة امبابة .
السيد / حسين أحمد على القادرى	القادرية القاسمية	الزقازيق - منطقة الزقازيق الأزهرية - مفتش علوم عربية .
السيد / عمرو محمد ضياء الدين عبد الباقى العفيفى	العفيفية الشاذلية	نائب عام -٣ شارع الجهينى - الدقى
السيد / عبد الرحيم محمد الجوهرى	الجوهرية الشاذلية	٤ شارع النبوية - العباسية - القاهرة
السيد الدكتور / أحمد محمد الدمرداش وكيل عام	الدمرداشية	مسجد الدمرداش - العباسية - القاهرة
السيد / حسن محمد سعيد الشناوى	الشناوية الأحمدية	١٤ شارع الخوارزمى المتفرع من شارع عثمان محمد - طنطا غربية

الاسم	الطريقة	العنوان
محمد على عبد السلام سلمان	الامبابية الأحمدية	وراق العرب - مركز امبابة
السيد حسن يوسف خليل الزاهد	الزاهدية الأحمدية	سنتريس - مركز أشمون - منوفية
أحمد صبرى عبد الرحمن الفرغلى	الفرغلية الأحمدية	منشية الزراعية شارع عبد العزيز - بنها
دكتور / حسن محمد حسن على المسلمى	المسلمية الخلوتية	الزقازيق المساكن التعاونية - شارع القومية عمارة الجامعة شقة ٥ .
عبد الله على المنوفى	المنايفة الاحمدية	٢ حارة مصطفى يحيى - ناصية شارع أحمد باشا كمال - شبرا - القاهرة .
زغلول المصيلحى	المصيلحية الخلوتية	البر الشرقى بجوار مستشفى . الحميات شبين الكوم - المنوفية .
أمين إبراهيم الهراوى	الهراوية الحفنية	قرية رزنة مركز الزقازيق - شرقية
عبد الرحيم محمد ابراهيم العزازى	العزازية	القطاوية مركز أبو حماد - شرقية .
نضال على المغازى	المغازية الخلوتية	سيدى غازى - كفر الدوار - بحيرة .
ابراهيم محمد سعيد الشرنوبى	السعيدية الشرنوبية	قلين -حصة الغنيمى كفر الشيخ
لواء / محمد عمر عبد المتعال البهوتى	البهوتية الخلوتية	تقسيم المحافظ - شارع رقم ٤ من شارع عبد السلام عارف- المنصورة .
محمد زكى ابراهيم	المحمدية الشاذلية	مسجد المشايخ - ١ شارع السلطان أحمد الدرامة . قايتباى - القاهرة .

الاسم	الطريقة	العنوان
السيد / محمد طه محمد على عثمان	الرحيمية القنائية	قنا - لوكاندة الكمال .
السيد / محمد عبد المجيد الشرنوبي	الشرنوبية البرهامية	خلف ٢٢ شارع النبى دانيال الاسكندرية .
السيد / ابراهيم محمد المغربي	الحمودية الاحمدية	مسجد وصف مركز زفتى - غربية .
السيد / عبد الفتاح إدريس - وكيل	الهاشمية الشاذلية	١٠٤ شارع المحافظة - العطارين الاسكندرية .
السيد / حسين الدسوقى الجنيدى	الجنيدية الخلوتية	نزلة الجنيدى (بريد الميمون) مركز الواسطى .
السيد / جوده عبد العليم الشيخ بكرى محمد	الجودية الخلوتية	قمش - طما - بنى مالو .
السيد / محمود ابراهيم أبو خليل	الخليلية	قسم النحال - بندر الزقازيق.
السيد / ايهاب محمود حسن العروسى	السجادة الوفائية	١٣ ش الشيخ العروسى باب الشعرية القاهرة .
السيد / بهاء الدين على العنانى	السجادة العنانية	١٧ شارع يعقوب بالمالية - القاهرة .
السيد / مسعود عبد السلام حجازى	القادرية الفارضية	٢١ شارع المدينة المنورة خلف نادى الصيد .
السيد اللواء/ سمير محمد أحمد حسن - وكيل عام	الفاسية الشاذلية	٦ شارع المأمون مدينة الأوقاف - إمبابة
السيد / الحسيني عبد اللطيف أبو الحسن الجوهرى	الجوهرية الاحمدية	بلقاس - دقهلية شارع أبو الحسن
السيد / عبد القادر أحمد مجاهد	المجاهدية البرهامية	طنطا عمارة الانشاء والتعمير - الطريق السريع قحافة دور ٤ شقة ٩ .
السيد الدكتور / محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني	الغنيمية الخلوتية	١٨ شارع الدكتور جمال نوح - المنطقة - مصر الجديدة .

الاسم	الطريقة	العنوان
السيد / محمد محمود أحمد هاشم	الهاشمية الخلوتية	بنى عامر مركز الزقازيق - شرقية .
السيد / أحمد السيد أحمد على الصاوى	الصاوية الخلوتية	عمارة الأوقاف - الفيوم .
السيد الدكتور / محمد بهجت نور الخضيرى	الخضرية	الاسكندرية / تعاديات سموحة عمارة ١٢٦ شقة ٩٢
السيد / محمد كوبلاى البكرى	البكرية	٨ شارع العادل أبو بكر - الزمالك .
السيد / محمد محمود أبو الفيض المنوفى	الفيضية الشاذلية	القاهرة - حدائق القبة - أول شارع سكة الوايلى الكبير رقم ٤٨٤ .
السيد / الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى	الجعفرية الأحمدية المحمدية	مسجد صالح الجعفرى بالدراسة بالجمالية القاهرة .
السيد المستشار / محمد أبو الأسرار الحصافى	الحصافية الشاذلية	درب سعادة بالأزهر - عمارة العيسوى باب كوثر - القاهرة .
السيد المهندس / عبد الباقى محمد عبد الباقى الحبيبى	الحبيبية	حارة مراد غالب المتفرعة من شارع السد البرانى بالسيدة زينب القاهرة .
السيد / جميل مختلو بخيت	النقشبندية	١٤ شارع ابن الصائغ متفرع من ش السلطان حسين - محطة الرمل اسكندرية .
السيد / أحمد كامل الإدريسى	الإدريسية الشاذلية	أم درمان - المردة - السودان .

الأمين العام

(عبد الحميد عبد اللطيف)

شيخ مشايخ الطرق الصوفية
ورئيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية
بجمهورية مصر العربية

ملحـــق

ببيان باقى الطرق الصوفية الخاضعة لأحكام هذا القانون غير إنها إما متوقف نشاطها أو شاغرة من شيوخها :

القاسميه الشاذلية . السيد / سمير عبد الحميد البراموللى

الكتانية الأحمدية : السيد / حسن إبراهيم الكتانى ـ المغرب

القاياتيـــــــة : الســيد / كامل عبد الجواد القاياتى

العيـــــــوية :

الحندوشية الشاذلية :

شيخ مشايخ الطرق الصوفية	الأمين العـــام
(أحمد عبد الهادى القصبى)	(عبد الحميد عبد اللطيف)

المحتـــــــويات

الصفحة

الباب الثانى

(ص ٧٧ - ص ٩١)

أسئلة جريدة الأهرام

الباب الثالث

(ص ٩٣ - ص ١٣٣)

أسئلة صحفية أخرى

الصفحة

الباب الرابع

(ص ١٣٥ - ١٦٣)

الباب الخامس

(ص ١٦٥ - ١٨٢)

مطبوعات العشيرة المحمدية من مؤلفات فضيلة الإمام الرائد

أولا ● كتب مطبوعة :

١ - أبجدية التصوف الإسلامي . (طبعة رابعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩)

٢ - قضايا الوسيلة والقبور في ضوء سماحة الإسلام .

(طبعة ثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣)

٣ - أصول الوصول . (طبعة ثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م)

٤ - مراقد أهل البيت بالقاهرة . (طبعة رابعة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م)

٥ - فقه الصلوات والمدائح النبوية . (طبعة ثانية ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م)

٦ - دليل البيت المحمدى (طبعة أولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م)

٧ - السلفية المعاصرة إلى أين ؟ ومن هم أهل السنة ؟

(طبعة أولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م)

٨ - أهل القبلة كلهم موحدون ، وكل مساجدهم . مساجد التوحيد .

(طبعة أولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧ م)

٩ - « مفاتيح القرب » أو « رسالة في حضرة الله » .

(طبعة سابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ م)

١٠ - المرجع (معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصر) للعارف بالله المرحوم الشيخ ابراهيم الخليل بن على الشاذلي .

(تقديم وشرح وتعليق) .

١١ - عصمة النبي ﷺ . (طبعة رابعة ١٤٠٩ هـ -١٩٨٩ م)

١٢ - معالم المجتمع النسائي في الإسلام . (طبعة ثانية)

١٣ - ديوان البقايا (شعر - جزء أول)

١٤ - ديوان المثاني (شعر جزأين)

١٥ - الخطاب . (طبعة خامسة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦)

ثانيا ● كتب تحت الطبع :

١ - أعيان الشاذلية في العصر الحاضر .

٢ - بين التصوف والتمصوف .

٣ - فرائد الفوائد .